الوارثون

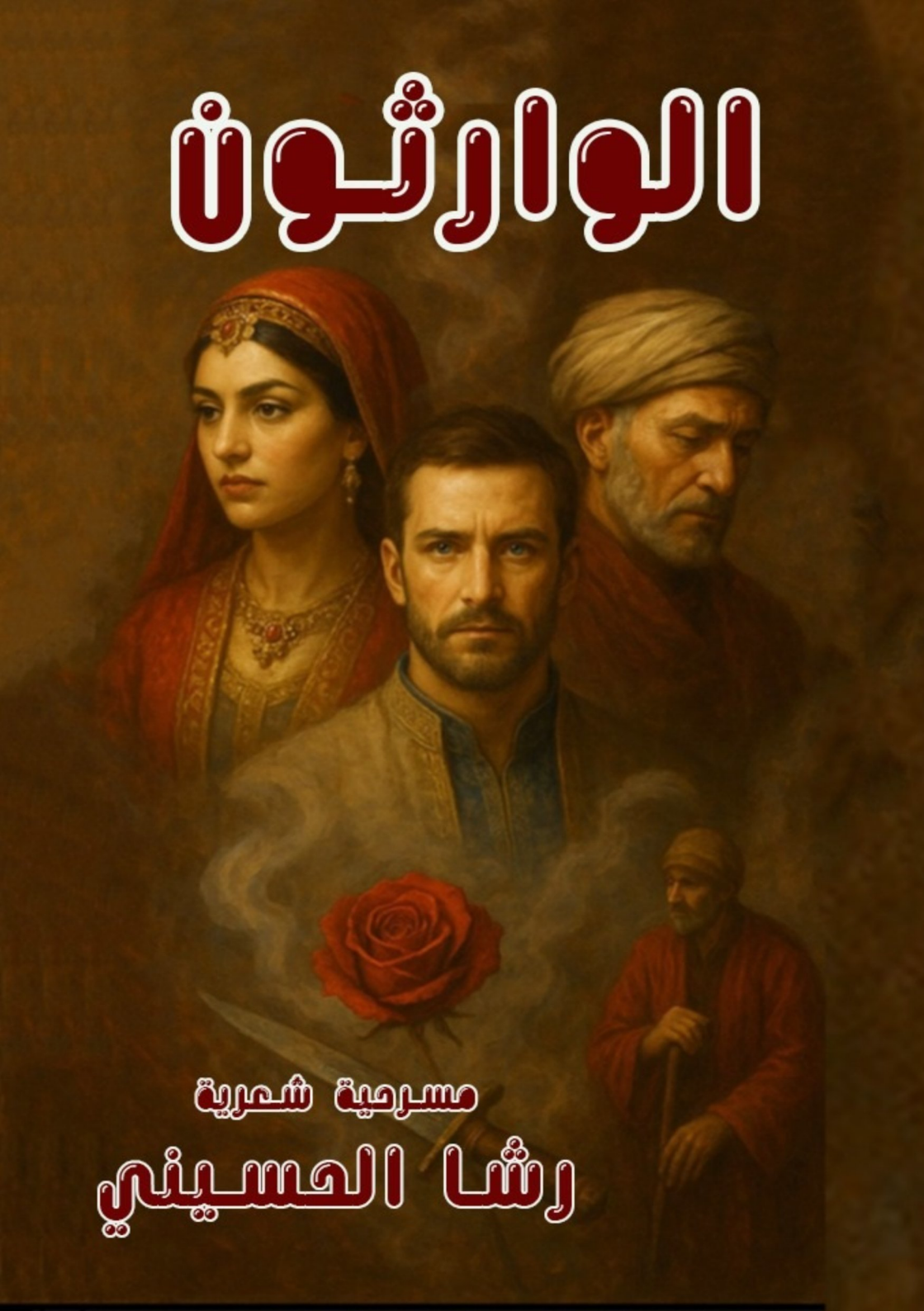

مسرحية شعرية

رشا الحسيني

رشا الحسيني

الوارثون

الفصل الأول

في عصر قنصوة الغوري

قصة فواز ودميانة

***

الفصلُ الثاني

حدائقُ الحُبِّ وَثمارُ الخِيانة

الإدْريسي

بدايةُ الزَّمَن:

مِصرُ تحتَ حُكمِ طومانَ باي

سنةَ ١٥١٦

سلسلة كتاب طيوف

المشرف الأدبي

السيد حسن

المدير التنفيذي

هناء أمين

الكتاب: الوارثون
اسم المؤلف: رشا الحسيني
التصنيف: مسرحية شعرية
المقاس: 20x14
رقم الإيداع: 2021/9902م
الترقيم الدولي: 978 - 977- 993 - 120 - 3

العنوان: 298 شارع فيصل - محطة ضياء
موقعنا على الفيس بوك: سلسلة كتاب طيوف
جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

الإهداء

إلى كلِّ مصريٍّ عزيزِ النفس،

أُهدي ثنائيةَ "الوارثون"...

تحيةً للفخرِ الكامنِ في القلوب،

وللكرامةِ التي تُورَّثُ من جيلٍ إلى جيل

لا ينجب الحق إلا القوة

تقديم

رغم تعلمها اللغة الألمانية بجدارة، ورغم رغبتها الجامحة في كتابة القصة والمسرحية، وربما الرواية باللغة الألمانية للألمان، كما فعل توفيق الحكيم بكتابة بعض مسرحياته باللغة الفرنسية للفرنسيين، إلا أنها أرادت كتابة مسرحيتها الشعرية هذه باللغة العربية الفصيحة، لشغفها بلغتها، ولحبها المستميت لأصلها العربي، الكاتبة والأديبة المحاربة من أجل التأنيث، الساكنة بناءً والمتحركة والمنطلقة إعراباً ونشاطاً، والممتلئة حيويةً نحو الأفضل المتألقة الشاعرة رشا الحسيني، تبهرني أكثر وهي كاتبة تارة، وهي شاعرة تارة أخرى، وهي أنثى تتحدى أنوثتها تارة ثالثة.

إن مسرحية (الوارثون) لَهِي مسرحية ملحمية صادقة، رغم ما بها من شطحات مارقة، إلا أنها تفيض بالحب، وإن كان مشوباً بشوب من حميم، لا يرتضيه المنطق ولا النطاق العربي الذي قد يبدو حباً ممجوجاً نوعاً ما؛ ولكن الكاتبة المتألقة تتألق في سرد الحكاية سرداً يجمع بين التأييد لما يجيش في القلب بغض النظر عن مؤداه، وبين ما ينبغي أن يكون عليه الحبيبان، وقد رصدت للحبيبين الشقيين نوعاً ما، عقاباً يستحقانه من حيث

التعدي على حرمات المواثيق القصوى؛ ولكن الكاتبة نفسها تعلم علم اليقين أن لا سلطان لها على قلبين ارتضيا أن يكونا عرضة للقائلين عبر السنين، فالقلب كما الحب لا سلطان عليهما.

ولا غرو أن القُرافة كانت مكاناً ملائماً جداً لميلاد حب كتب له الفناء قبل أن يولد، فالطاعون لم يبقِ ولم يذر، ولقد لقن المحبين والمبغضين دروساً في الحياة والممات على السواء.

الكاتبة والشاعرة رشا الحسيني، رسمت بالكلمات شخصيات تنبض بالحياة حسب السياق الذي يليق بزمن ميتٍ طالما فاحت منه رائحة الحياة.

وفي المجمل: ما أجمل أن ينقد الكاتب نفسه قبل أن ينقده الآخرون ..

عبد العزيز الهاشمي

شاعر وأديب يمني

الوارثون

هزيمة الحب والوطن في زمن الطاعون

د.خالد محمد عبدالغني

لقد عانت البشرية من ويلات الفيروسات الوبائية قديماً، وتعاني من كورونا حالياً كنموذج للفيروس الوبائي، حيث جعلتنا "كورونا" جميعاً على مقربة من مشاعر الموت والاحتضار والفقد في زمن واحد سواء لأقاربنا أو أصدقائنا، ومشاعر الخوف من الإصابة لأنفسنا، وكل من شُفي منها يؤكد في شهادته أنه رأى الموت بعينيه ومن ثم فهو عائد للحياة.

وإلى جانب التوقعات التي تشير إلى أن ما يقرب من ثلاثة ملايين من البشر سوف يموتون بسبب كورونا، وأن حوالي ربع سكان العالم سوف يعانون من البطالة، وعدم القدرة على العمل، وانخفاض مستويات الدخل الاقتصادي، وتوقف عجلة الإنتاج، وشيوع الكساد التجاري والصناعي والزراعي، يرى علم النفس أن الأدب الفيروسي قد ناقش هذه القضايا في جوانبه الاستباقية التنبؤية الإلهامية، وفي جانبه التقريري الواقعي لما هو حادث من انتشار للفيروسات وما تُحدثه

من آثار سلبية، ومضيفاً جانب التحذير والتوعية للأطفال وللكبار أيضاً.

وتستهل رشا الحسيني مسرحية (الوارثون) بهذا المقطع لتشير إلى أن المسرحية تدور في زمان الوباء الفيروسي وهو الطاعون:

أيَّامُ الطَّاعُوْنِ الأَسْوَدِ

يقول ابن إياس: "إن الموتَ كان وحشًا أسودَ يُخيم على البلاد، فيموت في اليوم في مدينة كبيرة كالقاهرة أكثر من ألف شخص، ولا يستطيع القاضي أن يوزع التركة على الورثة؛ لأن الورثة بدورهم يموتون تباعًا، وكانوا يعلقون مفتاح البيت في النعش، وفي النهاية يؤول الورث لبيت المال ..".

لَمَّا زادت الأزمة، أطلق شيوخ المساجد دعوةً للتضرع لله، ورَدِّ المظالم، ورجوعِ التآخي والمعاني الإنسانيةَ السامية، وتركِ الدنيا؛ لأنه (يا وارث مَن يورثك؟!)، وأَعَدُّوا ذلك هو الحلَّ الأخير ..

المدهش في الأمر: أن الوباء الأسود (الطاعون) اختفى بعدها بفترة وجيزة .. {فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوْا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوْبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ} [الأنعام: 43].

ورشا الحسيني شاعرة لم أقرأ لها سوى هذا العمل حتى الآن، ولا أعرف عنها شيئاً سوى اسمها ومسرحيتها الشعرية، التي تتناول فيها قصة حب مهزوم منذ البداية، أو هو الحب المستحيل الشائع في كل قصص الحب المعمرة بيننا حتى الآن.

إنه الحب الذي يؤججه المنع والتحريم ويشعله عدم الإشباع والحرمان من اللذة.

(فَوَّاز يبحث عن دُمْيَانة في الصحراء باحثًاً عن شذاها).

فَوَّاز: دُمْيَانة! دُمْيَانة!

مَا عُدْتُ أَمْلِكُ رِيْشَتِيْ لِتَخُطَّ حَرْفًا بِالْقَلَمْ
مَا عُدْتُ أَقْدِرُ أَنْ أَرَاكِ، فَفِيْكِ نَاقُوْسُ الْكَلِمْ
حَتَّى صَبَاحُكِ حِيْنَ وَلَّى فَرَّ مِنْ لَيْلِيْ الْحُلُمْ
أَصْبَحْتُ أَجْهَلُ مَا الْحُرُوفُ وَقَدْ بَلَغْتُ بِهَا الْقِمَمْ
مَا عُدْتُ، مَا عَادَ الزَّمَانُ، ما عدت ما عاد الزمن
وَلَقَدْ بَحَثْتُ بِحُرْقَةٍ حَتَّى اكْتَفَيْتُ مِنَ الأَلَمْ
مَا عُدْتُ، مَا عَادَ الزَّمَانُ، ما عدت ما عاد الزمن
تِلْكَ الأَمَانِيُّ الَّتِيْ جَاعَتْ سَتَغْذُوْ مِنْ نَهَم

فَلَسَـــوْفَ تُطْعِمُ مَجْدَهَا مِنْ بَعْضِ خَيْبَاتِ الْهِمَـمْ

مَا عُدْتُ، مَا عَادَ الزَّمَانُ، ما عدت ما عاد الزمــن

وجاء الطاعون كعقاب لينهي حالة الحب بين فواز ودميانة لاستحالة الوصال بينهما:

الراعي: رأيتُها .. اذهب إليها، فهي هناك بين يَدَي الله يا أخي .. أدركها قبل أن يأكلها الطاعون ..

فَوَّاز (بعد لقائها): دُمْيَانة

(يَحْضُنها باكيًا): حبيبتي .. ماذا فعلت بنا الأيام؟!

(دُمْيَانَةٌ): أبْعِــدْ فُــؤَادَكَ وَابْتَعِــدْ

(فَوَّازٌ): رُوْحَــانِ حَــلاَّ فِيْ جَسَـدْ

(دُمْيَانَةٌ): أَخْشَــى تُصِـيْبُكَ لَعْنَتِــيْ

(فَوَّازٌ): إِنِّــيْ بِدُوْنِــكِ لاَ أَحَـــــدْ

(دُمْيَانَةٌ): انْطِقْهَــا قُل: يَا مُهْجَتِيْ

(فَوَّازٌ): الْقَلْــبُ وَالْعَقْـلُ اتَّحَـــــدْ

(دُمْيَانَةٌ): الشَّمْسُ غَابَتْ فِيْ الْمَدَى

(فَوَّازٌ): نَارُ الْفِـــرَاقِ سَتَبْتَعِـــدْ

(دُمْيَانَةٌ): مُنْذُ الصَّــبَاحِ لِمَغْــرِبٍ

(فَوَّازٌ): وَالْحُـــــبُّ رَغْدٌ فِيْ رَغَدْ

(دُمْيَانَةٌ): تَتَذَكَّـــــرُ اللُّقْيَا الَّتِــيْ

(فَوَّازٌ): فِيْهَا الْمَشَاعِـــــرُ تَرْتَعِدْ

(دُمْيَانَةٌ): كَـمْ قَدْ خَشِــيْنَا بَسْمَــةً

(فَوَّازٌ): وَعُيُوْنُنَــا كَانَتْ تَعِـــدْ!

(دُمْيَانَةٌ): وَلَكَــمْ تَوَاعَــدْنَا هُــنَا

(فَوَّازٌ): مِنْ حَيْثُ تَأْتِيْ لَـمْ تَعُــدْ!

(دُمْيَانَةٌ): وَالآنَ بِتْنَــا مِثْلَهُـــمْ

(فَوَّازٌ): جَسَــدَانِ وَالْقَلْبُ الأَحَــدْ

(دُمْيَانَةٌ): فَلْيَأْخُــذُوْا مِــنَّا الدُّنَى

وَنَعُــوْدُ لِلْفَــرْدِ الصَّمَــدْ

(فَوَّازٌ): فَلْيَأْخُــذُوْا مِــنَّا الدُّنَــى

وَنَعُــوْدُ لِلْفَـــرْدِ الصَّمَـــدْ

وكما هو الحال كما سبق وقلنا، يخلد التاريخ قصص الحب التي لم يتم فيها إشباع ولا وصال وكأن هذا هو القانون الحياتي الحاكم لمثل هذا الحب المهزوم .. تقول الشاعرة على لسان الهاتف:

الهاتف: وَتَغِيْبُ فِيْ هَذِيْ الدُّرُوْبْ

وَتَمُوْتُ مِنْ فَـــرْطِ التَّعَبْ

وَتَعِيْشُ بَعْـدَكَ قِصَّـــــةٌ

تُحْكَـــى وَتُنْشَرُ فِيْ الْكُتُبْ

فَوَّاز ودُمْيَانة ..

وتعرض المسرحية لواقع الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر في نهاية عصر دولة المماليك وبداية قدوم العثمانيين، وكيف انتشر الطاعون الذي أباد العباد

تَتَسَاقَــطُ فِيْ ثَلاَثِ قُــرُوْنْ * وَسَــيَأْتِيْ عَهْدٌ مَلْــعُوْنْ

سَلْطَــنَةٌ تُسْلِــمُ لِمَمَــــالِكْ * طَـــــاعُوْنٌ وَكَثِيْـرٌ هَالِكْ

السلطان: انتظرْ .. هل تَراني من بين زمرة الهالكين؟!

الرَّمَّال: بل أنت من الناجيين بأمر الله.

السلطان: كفاني اليوم بُشْرَى وتحذيرًا يا رَمَّال.

أين المنشدون؟ أسمعونا ..

وهكذا ينظر علم النفس للأدب الفيروسي من اتجاهات عدة، منها اعتبار الفيروسات مثيراً مزعجاً، يخرج ما في نفوس البشر من مكنونات مضطربة، كالقلق، والاكتئاب، والفزع، والخوف، والكوابيس، والأحلام

المزعجة، واضطرابات النوم، كالأرق، وفرط النوم كاستجابة للخوف والفزع والهلع من الإصابة بالفيروس.

كما يظهر الجشع المادي لدى التجار والمحتكرين للسلع والأدوية والمستلزمات الطبية، وما يعانيه الفريق الطبي والمعاونون له، وكذلك يظهر راغبو الثراء السريع، وبائعو كل القيم الإنسانية، كالمساواة، والعدل، كما تتجلى الدعوة لمحاربة تقاعس بعض الأنظمة الصحية عن الوفاء بواجباتها تجاه الأفراد.

ومنها ذلك الذي يعظم مفاهيم القوى الإيجابية في الشخصية، مستعيناً بمفاهيم الصحة النفسية، والأمل، والتفاؤل، والاعتقاد بالله، وطيب الظن به، والتوكل عليه، والتمسك بحب الحياة، وعدم متابعة الأحداث المزعجة والسيئة، والتحلي بالصبر، والصمود، والتجلد في مواجهة الشدائد، وبناء جسور من الثقة في حسن الغد والمستقبل، والقدرة على تخطي الأزمة.

وظهور الجوانب الطيبة، من تعاطف، وأعمال خير ومساندة ودعم المرضى والمحتاجين، واستكشاف جوانب القوة والضعف في الإنسان والمجتمعات، ومستويات الوعي، ومدى التمرد أو الانصياع للإجراءات الاحترازية الوقائية، وانعكاساتها السلوكية

علي أفراد المجتمع والأسرة والاقتصاد وطرق التعلم عن بعد، والتحذير من الفيروس وبخاصة لدى الأطفال، واكتشاف مهن جديدة وانحسار مهن قديمة وزيادة معدلات البطالة في عديد من المهن.

ومنها ما يعبر عن حالة المبدعين أنفسهم، وما قد يصيبهم من الوحدة والعزلة ومخاوف وقلق الموت، وسيطرة موضوعات يختلط فيها، ويندمج بداخلها، ما هو ذاتي متعلق بنفس المبدع، مع ما هو موضوعي مرتبط بالمجتمع وقضاياه ومشكلاته وأزماته مع الفيروسات، كحالات الانتحار، و وموت المسنين الموجودين في دور رعاية المسنين، وأزمات اختراع دواء أو أمصال للوقاية.

ومنها تلك الأعمال التي تنبأت بوجود الفيروسات، وما ستحدثه من آثار مدمرة على مساحات واسعة من الكرة الأرضية، واستخدامها كأسلحة للتدمير العام والشامل.

كما ظهر أيضا أن عديداً من هذه الأعمال بات يبدو كما لو كانت كتباً إرشادية، توضح لنا كيفية التعامل مع وضعنا الراهن مع الفيروسات .

وقد قدم لنا بعضها تسلسلاً زمنياً دقيقاً لوتيرة تطور وباء ما، بدءا من ظهور الأعراض الأولى له، وحتى بلوغ ذروته، ثم العودة بعد ذلك إلى الأوضاع العادية.

وفي "الوارثون" تغيرت الاحوال، وتغير العباد، وانقلب الأمر كرد فعل معاكس، حيث يظهر المشهد التالي: (البِنْداري يرتدي لباس المجذوب، حيث تبدلت أحواله بعدما عَلِمَ بموت دُمْيَانة وفَوَّاز، والمجذوب يرتدي لباس الشهبندر، ويُسَيِّرُ حال التجارة، والطاعون ينهشُ في العباد، وينادي -كما أمر السلطان- بالعفو من الضرائب، وإطلاق سراح المساجين، وبأن يلزم الكلُّ الاعتاب الشريفة .. ويا وارثُ مَن يرِثُك؟!).

وفي "الوارثون" ملامح الأدب الفيروسي المتمثل في رواية "صفارات إنذار بغداد" لياسمينا خضرا تطرق الكاتب عبر بطل روايته الذي فضل أن لا يمنحه اسما جاعلا منه حالة مجهولة تمثل البدوي العربي الساذج الذي يعيش في قرية ضائعة في صحراء العراق تسمى كفر كرم، وفي دخول غير مسبوق لعالم الفيروسات كانت المهمة الانتحارية التي قبل البطل القيام بها هي حقنه بفيروس ينتقل عبر التنفس، قبل أن يسافر إلى لندن وبث أنفاسه هناك في المطار والمترو والحدائق لإفشاء العدوى التي ستنتقل لكافة أوروبا وأمريكا.

واكتسح الطاعون مدينة وهران الجزائرية كما جاء في رواية الطاعون لألبير كامو، وتجتهد الرواية في إظهار تأثيرات الطاعون على العامة ويُعتقد أن الرواية مبنية على جائحة الكوليرا التي قتلت نسبة ضخمة من تعداد سكان وهران في عام 1849 عقب الاستعمار الفرنسي. وقدمت القصة القصيرة "الوباء الفيروسي في جنوب إفريقيا" لفريدريك دورنمات مناهضة قوية للعنصرية باستخدام فيروس وبائي حين يستيقظ رئيس جنوب إفريقيا وزوجته ذات صباح وقد أصابهما أعراض برد مصحوباً بتحول البشرة من اللون الأبيض إلى الأسود ويتم القبض على الرئيس بتهمة انتحال شخصية الرئيس ويُزج به في السجن، ليجد وزير العدل هناك وقد تحول لون بشرته إلى اللون الأسود. بعد التحقق من هويتهما، يخرج المسئولان من السجن، لكن الوباء الفيروسي، الذي يحول "البيض إلى سود" ما يلبث أن ينتشر في البلاد ومع الوقت لا يجرؤ البيض على الخروج إلى الشارع بعد تحولهم إلى سود.

ويبدأ رجال الشرطة والجيش البيض في إطلاق النار على رجال الشرطة والجيش المتحولين إلى اللون الأسود.

وعرضت رواية "دفتر أحوال عام الطاعون" لدانييل ديفو توثيقا عن الطاعون الذي اجتاح لندن عام 1665، مُقدما تأريخا تفصيليا لأحداثه، لتظهر ردود فعل الناس تجاه الصدمة الأولى الناجمة عن ظهور وباء جديد، وتفشيه على نحو شرس. وفيها أيضا أنه عندما تواترت شائعات بشأن عودة هذا النوع من الأوبئة إلى إحدى المقاطعات الهولندية، بحسب الأحداث، يتلو ذلك حدوث أول حالة وفاة يُشتبه في أنها ناجمة عن الوباء.

وفي "قصة فيروس" لعلياء كيوان الموجهة للأطفال محاولة لإخراج الطفل من قالب العلم التلقيني إلى العلم الممتع والذي يدفعه إلى الفضول والملاحظة والبحث والتجربة ليستنتج الحقائق العلمية كما هي حتى لا يصاب بالخوف والتوتر إذا سمع عن أمر مريب مثل فيروس كورونا. وحاولت تقديم ومضات معرفية للطفل في عزّ جائحة كورونا قد تكون الأولى من نوعها الموجهة للطفل العربي.

وتناولت قصة "ملك كورونا الصغير" لإيلي جاكسون تقديم عرض مبسط في شكل قصصي للأطفال كي يفهموا حقيقة ما يحدث بشأن كورونا لمواجهة شعورهم بالقلق والفزع منه ومن متابعة أخبار انتشاره وما يحدثه من وفيات على مستوى العالم، وطريقة القصة من

شأنها محو هذا الغموض والمساعدة على وضع الفيروس في سياق مناسب لهم مع تزويدهم بالمعلومات الصحيحة التي يحتاجونها.

ولهذا فالشاعرة رشا الحسيني تختم المسرحية بما آلت إليه أحوال البلاد بعد الطاعون والهزيمة مثلما تتبعنا بعض ملامح الأدب الفيروسي حيث كان الطاعون هو المعادل الموضوعي للغزو والاحتلال العثماني لمصر وفي الوقت نفسه انهيار حكم ودولة المماليك .

السلطان (يحدث الجيش):

يَا جُنُوْدِيْ، صَــبْرُ سَاعَــةْ * فِيْ الْحُرُوْب السَّمْعُ طَـاعَةْ

جَيْشَــنَا، فَاثْبُتْ وَقَـــاوِمْ * أَنْتُمُ أَهْــــــلُ الْبَرَاعَـةْ

صَــبْرُ بِرٍّ، صَبْرُ سَــاعَةْ * يَا جُنُوْدِيْ، صَــبْرُ سَـاعَـةْ

أَيُّهَـــا الْجُلْبَانُ عُــوْدُوْا * مُسْتَطَـــاعٌ، مُسْتَطَـــاعَةْ

(يختفي السلطان شيئًا فشيئًا).

الداعي:

يا مولاتي، لقد انهدم الجدار الذي دام ثلاثةَ قرون.

الهاتف:

فَلْتَسْمَــعِ الأَرْض النُّفُــوْرْ

بَيْنَ النَّوَارِسِ وَالصُّقُــوْرْ

وَالأُسْـدِ وَالذِّئْبِ الْعَقُـوْرْ

مَاجَتْ بِنَا حَـالُ الْعُصُـوْرْ

وَسَيَشْـرَبُ الأَتْرَاكُ بُـوْرْ

أَحْلَى دِمَـاءٍ مِــنْ عَبِيْـرْ

وَعَلَى عِظَــامٍ لَـنْ تَبُـوْرْ

سَيُقَامُ عَرْشٌ فَيْ الْقُصُوْرْ

فِيْ قَلْبِ مِصْرِيٍّ صَـبُوْرْ

تَحْيَا! أَيَا وَلَدِيْ الْجَسُــوْرْ

تَحْيَا! أَيَا وَلَدِيْ الْجَسُــوْرْ

****

(يسدل الستار على دولة المماليك

التي عاشت ثلاثة قرون)

ولقد كانت مسرحية "الوارثون" من حيث بناؤها الفني متسقة مع محاولات سبقتها لامتزاج الأدب بوقائع التاريخ مثلما هي مسرحية "مجنون ليلي" لأحمد شوقي و"الوزير العاشق" لفاروق جويدة و"مأساة الحلاج" لصلاح عبدالصبور ومسرحيات كثيرة كتبها مهدي بندق شملت أغلب نشاطه في المسرح الشعري الممتد

لخمسين عاما تقريبا كأبرز النماذج التي تحضرني الآن.

وأما من حيث الشكل الفني، وهو الشعر، فلست بالقادر على إبداء الرأي فيه، وله من هم أقدر مني علي ذلك، وأتمنى أن اقرأ لهم عن هذا النص الجميل والممتع كمتذوق، وكما تفاعلت مع مفرداته البديعة وصوره الجميلة ولغته الرهيفة وموسيقاه الآسرة للأذن ، ولقد أعترف لك أيها القارئ الكريم أن هذا النص "الوارثون" أخرجني من عزلتي ومن قراري لأكثر من عام بعدم الكتابة في النقد النفسي للأدب، وعلى المستوى الشخصي فالفضل لهذا النص أن تخرج عنه هذه الدراسة التي أتمنى أن تتروق لك.

دكتور خالد عبد الغني
دكتوراة في علم النفس الاكلينيكي والتحليل النفسي

*** (وردت هذه الدراسة في الفصل الثامن والعشرين من كتاب الشخصية الحائرة بين السواء والاضطراب النفسي. قراءات في نماذج من الرواية والشعر للدكتور خالد عبد الغني).**

مقدّمة المؤلفة

ليست المأساة في «الوارثون» حكاية سقوط دولة بقدر ما هي سقوط إنسان، ففي كل خطأ صغير، وكل ثقةٍ موضوعة في غير موضعها، تبدأ الحكاية من جديد.

الهيمارتيا هنا - كما سماها الإغريق - ليست خطيئة، بل زلّة روح، ميلٌ بسيط عن جادّة البصيرة، يتسع حتى يصير هاوية.

قنصوة الغوري وطومان باي، في لحظة ضعفٍ إنساني، يسلّمان رقبتيهما إلى من ظنّوهم أوفياء: خاير بك ملباي، وابن زنبل.

وابن زنبل، قارئ الرمل الزائف، يمدّ يده في رمال الوهم ليصنع منها نبوءة تخدر الناس، فيصدقونه لأن الحقيقة دائمًا أكثر وجعًا من الكذب الجميل.

في الزوايا الأخرى من المدينة، يحلم الإدريسي بجمالٍ مطلق ويقع أسير فتنة قادين، فتغدو **الهيمارتيا** عنده عشقًا عميقًا لكنه أعمى، وتغدو عندها خيانةً ناعمة تسكن بين الشكّ والحنين.

ووسط ذلك الخراب، يسير فواز ودميانة كطيفين من البراءة القديمة، يحاولان أن يكتبا قصيدة في زمنٍ لا يسمع إلا صدى الطبول والسيوف.

هكذا تتشابك الأخطاء، الفردية والجماعية، لتصنع مأساة أليفة الملامح.

فما من شرّ مطلق في هذا العالم، بل بشر يخطئون النية أو الطريق، وحين نراهم يسقطون، لا نبكيهم بقدر ما نتطهّر بهم..

ذلك هو **الكاثارسيس** الذي تحدّث عنه أرسطو، حين تتعلم النفس من الألم كيف تعود أكثر وعيًا وأقل غرورًا.

«الوارثون» ليست تأريخًا لعصرٍ مملوكي، بل مرثية لعصرٍ لا يزال يتكرر فينا كلما صدّقنا قارئ الرمل، وتركنا للعتمة حقَّ التفسير، وللخديعة فرصةَ النجاة.

رشا الحسيني

الفصلُ الأول

في عصر قنصوة الغوري
قصة فواز ودميانة

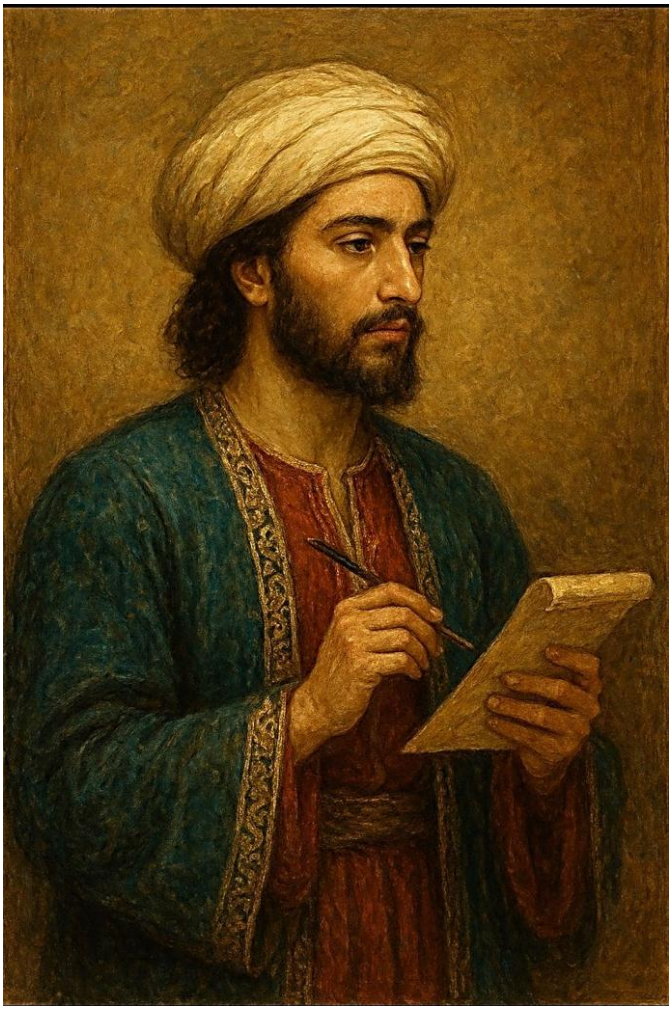

فواز

أَيَّامُ الطَّاعُوْنِ الأَسْوَدِ

يقول ابن إياس:

"إن الموتَ كان وحشًا أسودَ يُخيم على البلاد، فيموت في اليوم في مدينة كبيرة كالقاهرة أكثر من ألف شخص.

ولا يستطيع القاضي أن يوزع التركة على الورثة؛ لأن الورثة بدورهم يموتون تباعًا، وكانوا يعلقون مفتاح البيت في النعش، وفي النهاية يئول الورث لبيت المال.".

لَمَّا زادت الأزمة، أطلق شيوخ المساجد دعوةً للتضرعِ لله، ورَدِّ المظالم، ورجوعِ التآخي والمعاني الإنسانية السامية، وتركِ الدنيا؛ لأنه (يا وارث مَن يورثك؟!)، وأَعَدُّوا ذلك هو الحلَّ الأخير ..

المدهش في الأمر: أن الوباء الأسود (الطاعون) اختفى بعدها بفترة وجيزة ..

{فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوْا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوْبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ} - [الأنعام: 43].

***

الشَّخْصِيَّاتُ الرَّئِيْسَةُ:

الْحُكَّامُ:

- السُّلْطَانُ الأَشْرَفُ/ قَنْصُوْهُ الْغُوْرِيُّ
- يُوْأَنِسُ الثَّالِثُ عَشَرُ/ بَابَا الإِسْكَنْدَرِيَّةِ

الْمَمَالِيْكُ الْجُلْبَانُ:

- وَالِيْ الْقَاهِرَةِ/ عَلاَّنُ.
- رَمَّالُ الْقَصْرِ/ أَحْمَدُ بْنُ زَنْبَلَ الرَّمَّالُ.
- شَاعِرُ الْقَصْرِ/ فَوَّازٌ.

الْعَامَّةُ:

- تَاجِرُ الْقِمَاشِ/ الْبِنْدَارِيُّ.
- زَوْجَةُ الْبِنْدَارِيِّ/ دُمْيَانَةُ الأَسْمَرُ.
- الشَّاعِرُ/ فَوَّازٌ.
- الطَّبَّاخُ/ مَرْزُوْقٌ.
- الإِمَامُ الشَّيْخُ/ عَاشُوْرٌ.
- حَانُوْتُ الْبَرَكَةِ وَصَاحِبُهُ/ الْمُتَوَلِّيْ.

- الْمَجْذُوْبُ الشَّيْخُ/ دِعِيْبَشُ.
- رَاعِيْ الأَغْنَامِ.
- فِرْقَةُ الْقَرَانِيْصِ.

الْعُرْبَانُ:
- كَبِيْرُ الْعُرْبَانِ/ بَرْغُوْثٌ.
- الْمَنْسَر وَشَيْخُ الْمَنْسَرِ/ مَسْرُوْقٌ.

الزَّمَانُ:
فِيْ زَمَنِ سَلْطَنَةِ السُّلْطَانِ الأَشْرَفِ/ قَنْصُوْهُ الْغُوْرِيِّ، مُنْذُ عَامِ ١٥٠١م، حَتَّى عَامِ ١٥١٦م.

الْمَكَانُ:
قَاهِرَةُ الْمُعِزِّ لِدِيْنِ اللهِ (الْقَاهِرَةُ).

***

الْمَشْهَدُ الأَوَّلُ
فِيْ (خَان الْخَلِيْلِيِّ)

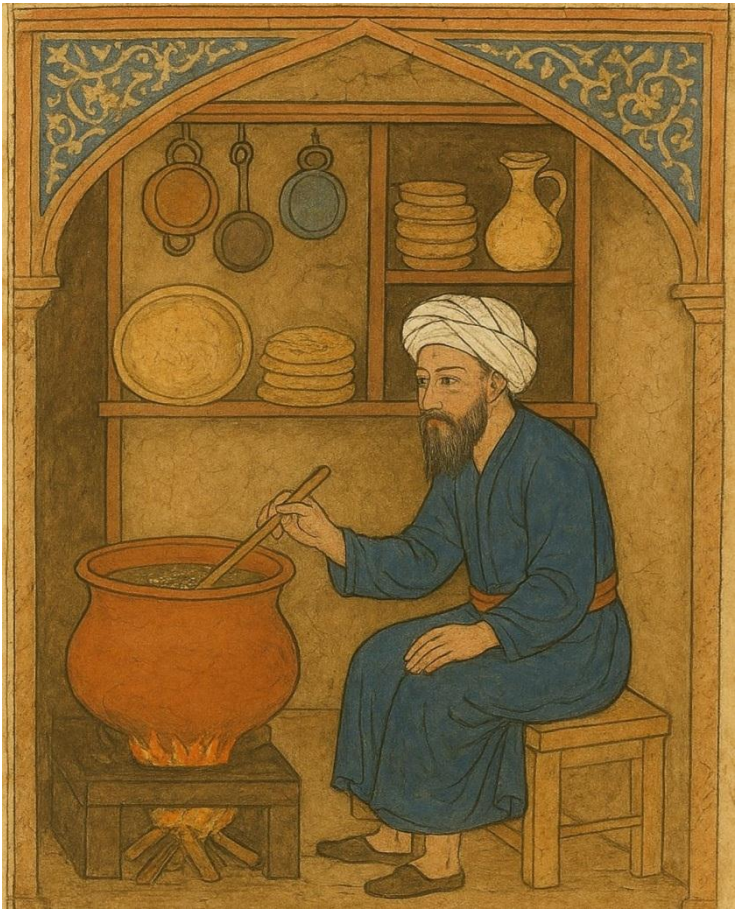

الطباخ

(يرتفع الستار عن سوق كبير في خان الخليلي .. عن اليمين دكان الشاه/ بندر، تعلوه لافتة كبيرة مكتوب عليها: "البس ولا تداري من عند البِنْداري).

في الصدارة: ثلاثةُ حوانيت: حانوت مكتوب عليه: "طباخ السوق/ مرزوق"، وبجواره حلواني المتولي، ولافتتُه مكتوبٌ عليها: "لِبَرَكات المتولي توكل .. لا تولي".

يجلس أصحاب الحوانيت أمام حوانيتهم، السوق مزدحم، المجذوب/ دِعِيْبَش يرتدي جلبابًا أسود، يمسك بالمبخرة وينشد:

وَنَعُـوْدُ مِنَ الْبَـدْءِ الدَّارَا * غُفْرَانًا نَرْجُــوْ الْغَفَّارَا
وَنُنَادِيْ الأَرْوَاحَ الثَّكْلَـــى * كَمْ جِئْنَا فِيْ اللَّيْلِ البَارَا
كَمْ زُرْنَا فِيْهَـا مَـــأْدُبَـةً * وَرَغِبْنَا كُنَّا الـــزُّوَارَا
وَوَقَفْنَا فِيْ بَابِ النَّجْـوَى * وَكَشَفْنَا فِيْنَا الأَسْـــرَارَا

***

يَا أللهْ .. اللهُ اللهْ * يَا أللهْ .. اللهُ اللهْ
يَا أللهْ .. الْفَضْلُ لِلَّهْ * يَا أللهْ .. الْمُلْكُ لِلَّهْ

***

اللهُ يُنَـــــــادِيْ زَائِـــرَهُ * اللهُ سَيَنْصُـــرُ أَنْصَارَا
يُرْسِيْ فَوْقَ الأَرْضِ النُّعْمَى * وَيُغِيْثُ غِيَاثًا أَمْطَـــارَا
وَنَعُـــــوْدُ مِنَ الْعَوْدِ الْبَدْءَ * غُفْرَانًا نَرْجُـــوْ الْغَفَّارَا
وَنُصَلِّي بِالرُّوْحِ الأَسْمَـــى * مُشْتَاقٌ يُشْـــرِقُ أَنْوَارَا
يَا عَيْنَ الـــرُّؤْيَةِ فِيْ دَمِنَا * نَتَجَلَّى سِـــــتْرًا أَسْتَارَا
فَأَغِثْنَا يَا رَبِّيْ دَوْمًـــــــا * قَدْ تُبْنَا، جِئْنَا إِصْـــرَارَا
يَا رَبِّيْ لُطْفًـــــــا يَا رَبِّيْ * نَسْتَغْفِرُ جَهْـــرًا إِسْرَارَا
جِئْنَا وَالْكَـــــوْنُ يُنَاجِيْنَا * وَنُسَبِّحُ نُزْجِـــي الأَقْمَارَا
وَنَعُـــــوْدُ مِنَ الْعَوْدِ الْبَدْءَ * غُفْرَانًا نَرْجُـــوْ الْغَفَّارَا

البِنْداري: يا دِعِيْبَش.

مَا أَحْلَى شِعْرَكَ يُطْـــرِبُنَا * وَالْقَلْبُ يُحِـــبُّ الأَشْعَارَا
بِالـــرِّزْقِ أَخِيْ لأَخِيْكَ ادْعُ * يَتَجَلَّى خَـــيْرًا مِدْرَارَا
وَيَغِيْبُ الْفَقْـــــرُ بِسِحْنَتِهِ * وَتَفِيْضُ النُّعْمَـــى أَنْهَارَا

خذ وادع لي يا دِعِيْبَش.

دِعِيْبَش: أدعو لك بلا أي دراهم يا رب.. (يهمس ويتمتم).
البِنْداري: سيظل مجذوبًا دومًا، فقريٌ نقر8يٌ واهمْ.

الطباخ/ مرزوق: دعك منه يا بِنْداري.

كَمْ سِعْرُ قُمَاشِ التَّنْجِيْدْ؟ * لاَ تُعْلِ كَأَسْعَارِ الْغِيْدْ

أَنَا لَسْتُ زَبُوْنًا قَدْ يَأْتِيْ * فَتَزِيْدُ كِسِعْرٍ فِيْ عِيْدْ

لاَ تُشْعِلْ بَيْعَـــكَ نِيْرَانًا * فَتُلَفُّ حِبَالاً فِيْ الْجِيْدْ

البِنْداري:

مَاذَا يَا قَعْـــرَ الأَقْدَاحْ؟! * حَسَـدٌ ذُوْ رِيْحٍ فَوَّاحْ

وَلَهِيْبُ عُيُوْنِكَ يُوْخِزُنِيْ * أَغْلِقْهَا، عَلَّكَ تَرْتَاحْ!

الطباخ/ مرزوق: يا ساتر! الله يغنيني عنك، وعن وجهك .. وعن نحسك في كل صباح، يا ليتني ما سألت!

مرزوق .. ساخرًا:

بَهْلُوْلِيْ، أَقْبِـلْ بَهْلُـــوْلْ * إِنِّيْ بِالنَّظْـــرَةِ مَعْلُـوْلْ

هَاتِ الرُّقْيَا الْكُبْرَى، إِنِّيْ * مُحْـتَاجٌ عَلِّـــيْ مَخْبُوْلْ

(يُقْبِلُ المتولي على مرزوق، وهما يتغامزان على البِنْداري).

المتولي:

السُّكَّـــرُ فِيْكُمْ مَرْغُــوْبْ * وَالْكَعْكَـــــةُ تَغْلِيْ مَيْهُـوْبْ
وَبَيَاضُ الْقِشْدَةِ فِيْ فَخْــرٍ * يَسْمُوْ فِيْ الْحَلْوَى مَسْكُوْبْ
عَيْنُ الْجَمَلِ الْكُبْرَى تَرْعَى * فِيْ قَلْبِ الْكَعْكَةِ مَثْقُــوْبْ
وَتَذُوْبُ لَدَى فَمِ مَنْ يَشْرِيْ * تَأْتِيْ بِالْعَقْلِ الْمَسْـــــلُوْبْ

البِنْداري:

(إِتْلَمْ) يَا أَحْلَى حَلْ .. وَانِيْ * وَحَـــــذَارِيْ مِنْ وَقْفٍ آنِيْ
غَضَـــــبِيْ أَقْسَى إِيْ وَاللهِ * مِنْ غَضْـــــبَةِ أُمِّ السُّلْطَانِ

***

(وبينما تَهُب المعركةُ بين الطباخ/ مرزوق ومتولي الحلواني، والتاجر البِنْداري يأتي مسرعًا إلى سوق العربان، وشيخهم/ برغوث والمَنْسَر، وعلى رأسهم شيخ المَنْسَر/ مسروق يقبلون في حشد مِن تابعيهم، ويوالون الهجوم على أصحاب الحوانيت، يجلسونهم على الأرض، ويقفون في وسط السوق .. شيخ العربان/ برغوث يشير بالسيف على رقابهم).

برغوث: هل حان موعد الحصاد يا مســـروق؟

شيخ المَنْسَر: وما أحلاه من حصاد يا برغوث!
نَجْنِـــيْ فِيْهَـــا قِشَّ الْقِشِّ * مِنْ شَعْرِ الرَّأْسِ إِلَى الْكَرْشِ
وَنُنَادِيْ فِيْ سُـــوْقٍ: هَـيَّا * مَنْ يَشْرِيْ عَظْمًا بِالْقِرْشِ؟!
(ينهض البِنْداري ويقبِّل يد مسروق).

البِنْداري:
أَرْجُـوْ أَرْجُـوْكَ اتْرُكْـنِيْ * أَنَا لَسْـتُ كَغِيْرِيْ، اعْتِقْـنِيْ

مسروق:
مَاذَا تَعْنِيْ لَسْتَ كَغَيْرِكْ؟! * مَنْ أَنْتَ أَيَا سَابِقَ عَصْرِكْ!
(البِنْداري يخرج صرة من دنانير، ويقدمها وهو ينحني).

برغوث:
هَـذَا هُـوَ أَوَّلُ مَـنْ يَفْهَـــمْ * لَنْ يُحْصِـدَ حَقًّـا لَوْ تَعَلَمْ
هَلْ نُكْمِلُ فِيْ سُوْقٍ حَصْدًا؟! * أَمْ سَيْفِيْ حَـــالاً قَـدْ كَلَّمْ؟!

(يتسابق الطباخ والحلواني مسرعَين نحو الحوانيت، يحضران الدراهم، والأطعمة، والحلوى، وهما يلهثان، ويضعونها أمام برغوث ومسروق وهما ينحنيان).

مرزوق ومتولي:

الرَّحْمَــةَ يَا شَــيْخَ الْمَنْسَـرْ * فَالرِّزْقُ لَدَيْنَا قَــدْ عُثِّــرْ
وَالْحَلْوَى قَدْ يَبِسَــتْ عِنْدِيْ * انْظُرْ! وَجَنَابُكَ قَدْ قَــدَّرْ
مَا بَعْدَ الْعُسْرِ هُوَ الْيُسْــرُ * وَعْدًا إِنْ حَــالِيْ قَدْ غُيِّرْ
سَأَزِيْدُ الصُّرَّةَ بِالأُخْــرَى * مَوْلاَيَ! ارْحَمْ .. فَلْتَعْذُرْ

شيخ العربان: ومن الذي كان يتغزل في حلواه منذ قليل؟! ألستَ أنت؟!

(وينزل شيخ العربان على كتفي المتولي بالعصا).

المتولي:

أَيْ! أَيْ! آهٍ! ذَا واللهِ * كَــذِبٌ يَا شَـيْخَ الْعُــرْبَانْ
كَذَّابٌ يَبْغِـيْ نَفَحَاتٍ * مِنْ رَجْــعِ نِعِيْقِ الْغُـرْبَانْ
بِيْ حُمْقٌ؟!
تَحْسَبِنُيْ أَحْمَـقْ * فِـيْ هَـذَا السُّــوْقِ الْغَلْبَـانْ؟!

شيخ المَنْسَر: هههههه إذًا .. فأنت أحمق السوق!

اكْتُبْ يَا حَانُوْت الأَحْمَقْ: * (حَلَوَانِيْ) أَحْمَقُ إِنْسَانْ

وَيُنَادى فِيْ سُوْقٍ: هَـــيَّا * مَنْ يَشْرِيْ مِنْ هَذَا الآنْ

سَيُجَرِّبُ عَشْرَةَ أَسْــيَاطٍ * بِعَصَايَ جَزَاءَ الْعِصْيَانْ

هههههه فلنمض إلى سبيلنا .. كفى!

(تتعالى الضحكات) مع صوت المجذوب/ دِعِيْبَش ..

دِعِيْبَش:

لَيْسَ دُوْنَ اللهِ وَادِ * يُمْطِرُ النِّيْلَ الغَوَادِيْ

رَبُّنَا رَبُّ الْفُــؤَادِ * رَبُّنَا رَبُّ الْفُـــؤَادِ

***

الْمَشْهَدُ الثَّانِيْ

فِيْ (الْقُرَافَةِ الشَّرْقِيَّةِ)

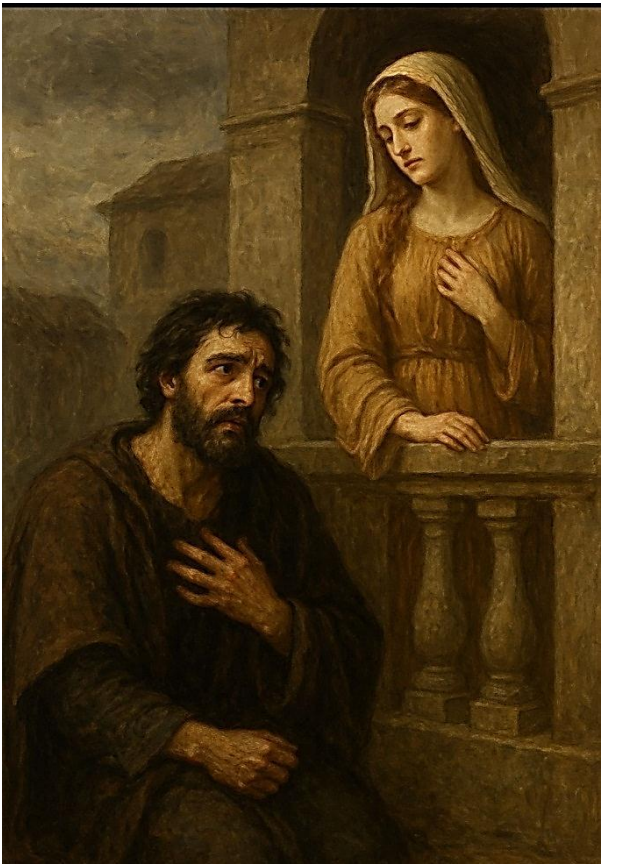

فواز ودميانة

(لقاءٌ قبيل ساعة الغروب في القُرافة الشرقية بين دُمْيَانة، زوجة البِنْداري، وشاعر القصر والسلطان الشاعر/ فَوَّاز. دُمْيَانة سارت على قدميها مسافةً طويلة من الخان إلى القُرافة الشرقية).

دُمْيَانة: آه يا قدمَيَّ.

الهاتف: آه! حقًا! من قل عقله أتعبته قدماه!

دُمْيَانة: إِيْهٍ! ما هذا الصوت؟ من يتحدث؟

الهاتف: قلبُك الذي يحدثك.

دُمْيَانة: يا قلبي! هل جننتُ من العشق؟

الهاتف: لا شأن لي بجنونك أو بعقلك! إنما أعشق هذا الألم الذي يوقظ في الحياة .. نبضَ الروح .. لهفةَ اللقاء.

دُمْيَانة: كفاك! كفاك يا قلب.

أَلاَ يَا قَلْبُ يَكْفِـــيْكَ احْتِرَاقًـــا
وَلِلْمَحْبُوْبِ عِشْقًـــا وَاشْتِيَاقًـــا
فَلَوْلاَ عِشْقُهُ، مَا ذُبْتَ عِشْقًـــا
وَلَوْلاَ الْهَجْرُ مَا ضَاعَتْ مُنَاكَا

فَيَحْـــيَا فِيْ سَـــرَايَاهُ قَـرِيْرًا
وَفِيْ الشُّطْآنِ مَهْدُوْرٌ دِمَـــاكَا
كَفَاكَ الْعِشْـــقُ نَزْقًا وَانْفِلاَتًا
وَكُنْ لِلْعِشْقِ نُوْرًا فِيْ عُلاَكَـا
فَكَمْ فِيْ الْعِشْقِ قَدْ تَعِبَتْ نُفُوْسٌ!
وَكَمْ فِيْ الآهِ مَسْمُـــوْعٌ نِدَاكَا!
وَأَنْتَ كَمَا أَرَاكَ وَفِيَّ عَهْـــدٍ
وَمَا عَهِدَ الْغَرَامُ وَمَا وَفَاكَـــا
وَتُبْدِيْ مِنْ مَحَـــاسِنِنَا عُيُوْبًا
لِكَثْرَةِ مَا تَبَدَّى مِنْ بَهَـــاكَا
فَصِرْتُ سَجِيْنَةَ الأَشْوَاقِ سَكْرَى
فَهَلْ أَلْقَـــاكَ مُمْتَنًّا لِذَاكَـــا؟!
وهَلاَّ تُطْلِقُ الْعُصْفُوْرَ يَسْرِيْ
يُرَدِّدُ فِيْ مَدَى الدُّنْيَا غِنَاكَا؟!
وَهَلاَّ تَهْـــدِمُ الأَسْـــوَارَ عَنِّيْ؟!
فَقَدْ تَعِبَتْ يَدِيْ، سَلِمَتْ يَدَاكَـــا

الهاتف: كفاكِ أنتِ! فأنا لن أكف! أبدًا لن أكف.

يجئ الشاعر"فَوَّاز" مُلَثَّمًا مُرْتَدِيًا حُلَّةً رمادية، فيمسك يَدَها.

فَوَّاز: حبيبتي، ما بكِ؟! يَدُكِ ترتعش!

دُمْيَانة: جننتُ بحبك يا فَوَّاز

أسمعُ صدى صوتٍ يخبرني أنه قلبي.

فَوَّاز: حبيبتي

(ويخرج الخنجر ويشير به إلى صدره)...

سأقتل نفسي إن تأخرتُ عليكِ بلا عذر.

(دُمْيَانة تخطف من يده الخنجر، وترميه بعيدًا، وتقبِّل يدَه).

دُمْيَانة: حبيبي، روحي فداك، أخبرني ماذا حدث؟

فَوَّاز: هههههه لن تصدقي ما حدث في القصر لتنصيب السلطان"أشرف قَنْصُوْه الغوري".

دُمْيَانة: الغوري؟!

فَوَّاز: نعم، من قوم كانوا أصلاً يمتهنون تأديب الأطفال، وتعليمهم، اسمهم الغور .. كان يبكي حال توليه المُلك .. لا يريده، خوفًا على حياته، لِمَا رأى من عاقبة مَن سبقوه، ولكن أشد ما أخشاه في الداخل أن يسيطر عليه المماليك الجُلبان بسطوتهم وطمعهم، فيلقي على كاهل الشعب الضرائب ... دعكِ من أمور القصر والسلطنة ..

خَبِّـــرِيْنِيْ خَبِّرِيْنِـــيْ * عَنْ مُنَايَ، عَنْ حَنِيْنِيْ
أَنْتِ يَا شَمْسَ نَهَـارِيْ * فِيْ حَنَايَا الْحُـبِّ دِيْنِيْ
آهِ لَوْ قُلْـــتِ: أُحِبُّكْ * يَمْخُـــرُ الْيَمَّ سَفِـيْنِيْ
أَمْ تُرَاكِ كُنْتِ حُلْمًـا؟! * أَمْ عَلَى وَعْـدٍ يَقِيْنِيْ؟!
بِانْصِرَافِ الْعَقْلِ حِيْنًا * وَبِرُوْحَـــيْنَا الْتَقِيْنِيْ

دُمْيَانة:

وَيَا لَهَـــفَ الْقُلَيْبِ وُكَلَّ شَـــوْقِيْ
أَنَا السَّكْـــرَى، فَلاَ تَهْوَى فِرَاقِيْ!
عُيُـــوْنٌ فِيْ عُيُوْنٍ حِيْنَ تُمْسِـــيْ
هِيَ النَّشْـــوَى! فَهَلْ جِئْنَا بِرَاقِ؟!
أَسَـرْتَ الْقَلْبَ يَا حُـــبِّيْ، فَزِدْنِيْ
أَنَا أَهْوَاكَ لاَ أَهْوَى انْعِتَـــاقِيْ
وَرَوْضٌ فِيْهِ أَزْهَـــــارٌ تُغَنِّيْ
لأَجْلِيَ غِنْوَةً حِيْنَ التَّـــــلاَقِيْ
وَأَعْهَدُ بِالصَّـــبَابَةِ كُلَّ حِيْنٍ
وَتُقْسِمُ أَنَّنِيْ فِيْ الْعَهْـــدِ بَاقِ

إِلَيْكَ مَشَاعِرِيْ، كُنْ مُطْمَئِنًّا
فَعَهْدٌ بَيْنَنَا كُـــــــلُّ الوَثَاقِ
أَقِـــرَّ الْعَيْنَ نَوْمًا يَا حَبِيْبِيْ
فَعَيْنِي قَرِيْرَة تَبْغِـــيْ فَوَاقِيْ

فَوَّاز:
أُحِبُّـــكِ غِنْـــوَةً تُحْـيِيْ حَنِيْنًـــا
تُجِيْـــدُ صِـيَاغَتِيْ مِثْـلَ الْقَوَافِيْ
وَكُلُّ السِّحْـــرِ فِيْ مَعْنَـاهُ يَحْلُـــوْ
ذَا عَبَـــرَا هِلاَلَيْنَـــا الْفَيَـــافِيْ
صِـــيَامٌ فِيْ صِـــيَامٍ مِلْءَ يَـوْمٍ
وَجَدْتُ الْعِيْدَ فِيْ نَحْرِ اعْتِرَافِيْ

دُمْيَانة:

وَأَنْتَ رَمَيْتَنِيْ بِالسَّهْـــمِ حَـــتَّى
أَصَبْتَ فُـــــؤَادِيَ، آهٍ حَبِيْبِـــيْ
فَتُسْمِعُ صَـــوْتَ أَنَّاتِيْ غَرِيْبًـــا
وَيُنْبِتُ نَرْجِسِـــيًّا مِنْ لَهِيْبِـــيْ
هِيَ الدُّنْيَـــا قَصِـــيْدٌ فَـوْقَ بَيْتٍ
نُعَتِّقُ فِيْهِ مِنْ مِسْـــــكٍ وَطِـيْبِ
أُرِيْدُكَ فِيْ هُيَامِيْ أَلْـــفَ عَـامٍ
وَهَذَا مُبْتَغَـــايَ، وَذَا نَصِيْبِـــيْ
عَرَفْتُكَ شَاعِرًا ذَا أَلْفَ عَيْـــنٍ
سَأَكْفِيْكَ اثْنَتَيْنِ، وَعَـــنْ قَرِيْبِ

فَوَّاز:

سَلاَمٌ يَا دِمَـــاءَ الْقَلْبِ حَتَّى
تَجَاوَزَ حُبُّنَا لُغَـــةَ الْكَلاَمِ
وَأَلْفُ تَحِيَّةٍ وَالْقَلْـــبُ يَنْدَى
تُرَدِّدُ صَوْتَهُ لُغَةُ السَّـــلاَمِ

سُهَادٌ أَوْ بَرِيْقُ الْعَيْنِ يَكْفِـــيْ
لِتُدْرِكَ حِيْنَـــهَا مَعْنَى الْهُيَامِ
وَلَيْسَ الْحُبُّ مَنْطُوْقًا وَجَدْتُ
عَلَـــى مَرِّ الزَّمَانِ بِأَلْفِ عَامِ
وَلَوْ قُلْتُ: أُحِبُّكِ، ثُمَّ مُـــتُّ
يَعِيْشُ بِذِكْرِهَا قَاضِيْ الْغَرَامِ

دُمْيَانة: مالت الشمس، وسوف نستدفئ بقلبينا على ضوء هذا المشعل في الطريق، حان وقت الإياب يا حبيبي.

فَوَّاز: حان وقت الغروب يا حبيبتي، فَلْنَسِرْ إلى حيث القَدَر.

***

الْمَشْهَدُ الثَّالِثُ

فِيْ (قَصْر السُّلْطَان/ قَنْصُوْهِ الْغُوْرِيِّ)

السُّلْطَان/ قَنْصُوْهِ الْغُوْرِي

(السُّلْطَانَةُ/ خَوَنْدْ جَانْ سُكَّرْ الْجَرْكَسِيَّةُ، زَوْجَةُ السُّلْطَانِ)

ضُيُوْفُ الْقَصْرِ:

- عَلاَّن، والي القاهرة.
- "يُوْأَنِس الثالث عشر" بابا الإسكندرية.
- الأمير"إينال"، مهندس الإنشاءات.
- "خاير بك مَلْبَاي"، حاجب الحُجَّاب.
- الأتابكية.
- الشاعر" فَوَّاز".
- "أحمد بن زَنْبَل" الرَّمَّال.
- الشهبندر"البِنْداري".
- أئمة المذاهب الأربعة، وخلفاء: سيدي "أحمد البدوي"، وسيدي "إبراهيم الدسوقي"، وسيدي"عبد القادر الجيلاني".

(السلطان/ قَنْصُوْه الغوري يجلس على كرسي السلطنة في المنتصف، يعلو الكرسي عن خشبة المسرح بثلاث درجات من السلم المزركش بالذهب، وعن اليمين واليسار يصطف جميع الحاضرين).

السلطان"قَنْصُوْه الغوري": مرحبًا بكم.

الجميع في صوت واحد:

دَامَ عِزٌّ وَانْتَصَرْ * دُمْتَ فِيْ أَبْهَى الصُّوَرْ

أحمد بن زَنْبَل الرَّمَّال: مولاي السلطان، أتأذن لي؟

السلطان: اقترب يا رَمَّال، هات ما عندك.

(يشير الرَّمَّال لخادمه أن يأتي بقارِبٍ خشبي صغير من الرَّمْل).

الرَّمَّال:

أَقْبِلْ يَا رَمْلاً فِيْ سِـــــرٌّ
لَنْ تُخْفِيَ عَنِّيْ، وَائْسِــرْ
وَاصْدُقْنِيْ قَوْلاً أَسْفِـــرْ
فِيْ حَضْرَةِ سُلْطَانٍ سِـرْ

"السين" يا مولاي السلطان، عدوُّك يبدأ اسمه بحرف "السين".

(تتعالى الهمسات في قاعة القصر) ..

السلطان: هههه (السين)؟! ..

مَا أَيْسَـــرَهُ هَذَا الأَمْـرْ
هَذَا سِيْنٌ سِيْنُ الْيُسْـــرْ
حَرْفٌ قَدْ يَهْمِسُ بِالسِّـرْ
أخبرني خاير بِك ..

الرَّمَّال: خاين بك.

السلطان (مُنْزَعجًا): ماذا تقول أيها الرَّمَّال؟!

أحمد بن زنبل

ابن زَنْبَل هامساً:

الرَّمْلُ يَهْمِسُ بِحُــرُوْفْ * أَحْسَبُهَا تَرْفُلُ وَتَطُــوْفْ
لِلْحَرْبِ سَتُدَقُ دُفُــوْفْ * وَالرَّايَةُ تَسْقُطُ وَشُفُــوْفْ
تَتَسَاقَطُ فِيْ ثَلاَثِ قُرُوْنْ * وَسَيَأْتِيْ عَهْدٌ مَلْعُـــوْنْ
سَلْطَنَةٌ تُسْلِـــمُ لِمَمَالِكْ * طَاعُوْنٌ وَكَثِيْـــرٌ هَالِكْ

السلطان: انتظرْ .. هل تَراني من بين زمرة الهالكين؟!

الرَّمَّال: بل أنت من الناجيين بأمر الله.

السلطان: كفاني اليوم بُشْرَى وتحذيرًا يا رَمَّال.
أين المنشدون؟ أسمعونا ..

المنشدون:

النَّاسُ مَــوْتَى وَأَهْلُ الْحُــبِّ أَحَــيَاءُ
لِلْوَصْلِ أَصبُوْ وَوَحْيُ الْقُرْبِ إِنْشَاءُ
وَإِنْ هُدِيْتُ فَمَا شِئْتُ، هُمُوْ شَــاءُوا
آنَ الرُّجُــوْعُ، فَأَفْيَــاءٌ لِمَنْ فَاءُوا
النَّاسُ مَــوْتَى وَأَهْلُ الْحُــبِّ أَحْــيَاءُ

يَا طَالِبَ الْخَيْرِ، فِيْ الْخَيْرَاتِ إِبْقَـاءُ
فَالْحُـبُّ فِيْ الدِّمِ وَالسُّقْيَا هُوَ الـدَّاءُ
قِرْطَاسُهُمْ دَهْرُهُمْ وَالنَّيْلُ إِصْغَـاءُ
النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْخَيْرِ أَحْـيَاءُ

***

قَلْـبٌ وَمِحْـبَرَةٌ، لَـوْحٌ وَإِمْـلاَءُ
سَوْطٌ عَلَى الْجَهْـلِ وَاللَّثْغَاتُ وَالثَّـاءُ
كَالرِّيْحِ فِيْ نَخْـلَةٍ وَالأَرْضُ جَـوْفَاءُ
وَمِنْهُمُ الـرُّوْحُ، وَالْقَـوْمُ الأَحِـبَّاءُ
النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْـمِ أَحْـيَاءُ

***

سَيْفٌ وَتِيْجَـانٌ فِيْ الْعِشْـقِ أَدْوَاءُ
وَالْحُـبُّ فِيْ الْقَلْـبِ أَنْـوَارٌ وَإِرْوَاءُ
وَالذِّكْـرُ يُسْكِـرُنَا، وَالسُّكْـرُ آلاَءُ
وَالرَّاحُ يُمْطِـرُنَا وَالْفَجْـرُ أَنْـوَاءُ
النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الِّنـورِ أَحْـيَاءُ

***

يَمْضِيْ بِنَا سَحَــرًا وَالْعَــوْدُ إِهْدَاءُ
وَالصَّــوْمُ يُفْطِــرُنَا وَالْفِطْرُ إِطْوَاءُ
عُبَّـــــــادُنَا لَعَلَى حُــبٍّ لِمَنْ بَاعُوا
وِرْدٌ وَإِشْهَـــــــــادٌ إِنْ حَلَّ إِقْصَاءُ
النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الِّـديْنِ أَحْـــيَاءُ
فِيْ الْقَلْــبِ أَنْـوَارٌ فِيْهِــمْ وَإِسْــرَاءُ
مِعْرَاجُــنَا وَطُنٌ فِيْ حَيْثُمَـــا نَاءُوا
أَرْبَاحُــــــنَا تَتْرَى وَالضَّوْءُ إِجْلاَءُ
وَالأَهْـــــلُ إِنْ مَرُّوْا نَهْنَا إِذَا جَاءُوا
النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْـــــلُ الْبَيْتِ أَحْيَاءُ

السلطان: أحسنتم.
يستأذن المنشدون والصوفيةُ وأحمدُ الرَّمَّال ..

السلطان: علاَّن.

علاَّن: مرني يا جناب السلطان.

السلطان:أمَا آن للعُربان والمَنْسَر أن تُكْسَر شوكتُهم؟!

علاَّن: السمع والطاعة يا مولاي السلطان.
إني لهم (يَجُزُّ على أسنانه ويكسر مِنْسَأَتَه بيديه).

السلطان: في القريب العاجل أريد أن أرى، لا أسمع.

(خاير بك ملباي يقف متحيرًا قلقًا، يحدق خارج القاعة، وكأنه يريد أن يتناول أحمد بن زَنْبَل الرَّمَّال من رقبته، بينما ينظر إليه ابن الرَّمَّال من خارج القاعة، وهو يتحدث مع الصوفية بابتسامة ماكرة، وكأنه يحمله بين عينيه).

السلطان: خاير ملباي.

خاير بك ملباي: أمرَك يا دولةَ السلطان.

السلطان: المماليك الجُلبان.

خاير بك ملباي: ضيوفُ اليوم وأحبَّاءُ الغد
نكرمهم فيرضَون .. ونأمن مكرهم فيصفقون.

السلطان: ومَن أين تأتي لهم بما يسد شَبَق أفواههم؟

خاير بك: خزائنُ السلطنة خاوية، والحوانيت والتجار خزائنهم ممتلئة حَدَّ الشبع، فمِن العدل أن يُقْرِض التجارُ خزينةَ الدولة بعضًا من نعم الله، خاصة أننا سنجنبهم العربان والمَنْسَر، أليس كذلك يا علاَّن؟!

علاَّن والي القاهرة:

سَأَقْطَعُ دَابِرَ الْعُـــرْبَانْ * وَمَنْ أَوْفَى لَهُـمْ تَبَعَـا
وَأُبْطِلُ سِحْرَهُمْ وَالْجَـانْ * وَأَسْقِيْ غَرْسَهُـمْ فَزَعَا
وَأَرْفَــعُ رَايَةَ السُّلْطَــانْ * وَأَجْعَلُ فِيْهِ مَا شَـــرَعَا

السلطان: أحسنت يا علاَّن.

(البِنْداري بدت عليه علامات القلق والتوتر لِمَا يسمع، وهو يفكر كيف سيبرر للتجار الارتفاع في الأسعار، ليغطي على ما سيُطْلَب منه من قروض، بينما فَوَّاز الشاعر غيرُ مشفق على البِنْداري الذي يقف بمحاذاته).

السلطان: فَوَّاز.

فَوَّاز: أمر جناب السلطان.

السلطان: أسمعنا قصائدَ في الغزل يا صعلوك الشعراء وشاعر الصعاليك.

علاَّن: والآن هو شاعر السلطان يا مولاي السلطان.
السلطان: هههههه كلا، حتى نسمع أولاً ..

(فَوَّاز يقف في وسط القاعة، وكأنه طيرٌ هَمَّ أن يحلق بجناحيه لترتفع قدميه عن الأرض فيسمو بعيدًا في السماء).

فَوَّاز:

رُدِّيْ صِـــيَامِيْ يَا فَتَـــاةَ صَـــــلاَتِيْ
وَاهْدِيْ غَـزَالَ الْحَـــيِّ فِيْ الْفَلَـــوَاتِ
قَدْ هَامَ عِشْقًا فِيْ الْعُيُوْنِ وَسِحْـــــرِهَا
وَأَخَـــافُ مِنْ نَزَقٍ وَمِـــنْ لَعَـــــنَاتِ
إِنْ كَانَ لِلْعُشَّـــاقِ أَنْ يَهْـــــوَوْا صِبًا
بِصَـــــبَابَتِيْ، سِحْرًا وَحُـــــبُّكِ ذَاتِيْ
لاَ لاَ تَخَافِيْ مِنْ وُرُوْدِكِ أَبْحُـــــرِيْ
فَالْعُمْـــــــقُ أَهْدَأُ وَالْجَحِيْمُ لَعَـــــاتِ

الجميع: الله! .. الله! .. زدنا يا فَوَّاز!
الله! .. الله! .. زدنا من الشعر بيتًا!

فَوَّاز: دُمْيَانة ..
تَاجٌ عَلَى تَاجٍ وَطُوْفَانٌ مِنَ الْمَـــــــدَدِ
تَسْرِيْنَ فِيْ قَلْبِيْ دَمًا، فَامْشِيْ عَلَى رَغَدِ
كَمْ ذَا سَقَاكِ الثَّغْرُ وَالتَّنْهِيْدُ فِيْ جَسَـدِيْ!
دُمْيَانَةٌ سَرَقَتْ! فَيَا عَقْلِيْ! وَيَا رَشَـدِيْ!

(يقاطعه البِنْداري ضاربًا إياه بقبضة يده، فيوقعه على الأرض .. يسرع علاَّن ويحكم ذراعيه حول البِنْداري).

علاَّن: هل جُننتَ يا رجل؟! هل جننت؟!

البِنْداري: سَلْهُ: مَن دُمْيَانة التي يقصد؟!

فَوَّاز: من دُمْيَانة؟! أجبني أنت
ما شأنك بمن أحب وأعشق؟!

البِنْداري: خسئتَ يا صعلوك .. أنت تعرف.

السلطان: هل جُنَّتْ ألبابُكم؟!

أنتم في حضرة السلطان ..

خاير بك، فُض هذا المجلس الآن.

(ينصرف الجميع من قاعة القصر)

***

الْمَشْهَدُ الرَّابعُ

فِيْ (خَان الْخَلِيْلِيِّ)

(الشاعر/ فَوَّاز يتسكع في الخان منتظرًا إشارة دُمْيَانة، ليسبقها تلك المرة إلى القُرافة، ليلتقيا .. ومساكن التجار فوق الحوانيت.

وفي الوقت نفسه .. البِنْداري يجلس مفكرًا حزينًا يسترجع الموقف الذي حدث بينه وبين فَوَّاز في قصر السلطان "قَنْصُوْه الغوري" .. وهو داخل الحانوت .. يُقْبِل عليه الشيخ"عاشور").

الشيخ "عاشور": ما لَكَ حائر البال
تائهُ اللُّب يا صاحب المال؟!

البِنْداري: هل كل دُمْيَانة في السلطنة هي التي في رأسي؟! أم أن هناك دُمْيَانة أخرى؟! متى رآها لو كانت هي؟! سأُجَنُّ يا شيخ/ عاشور.

عاشور:

دَعْ عَنْكَ هَمَّكَ وَاسْتَعِدْ * وَإِلَى الوَسْاوِسِ لاَ تَفِدْ
اللهُ مَوْجُـــــــوْدٌ لَنَا * فَانْبِـذْ إِلَيْهِ وَاسْـــــتَنِدْ

البِنْداري: سأذهب إلى ابن زَنْبَل الرَّمَّال أستأذنك يا شيخنا.

عاشور: سبحان الله! هل كنت أحدث نفسي؟!

(يضرب الشيخ "عاشور" إحدى كفيه بالأخرى، وبينما البِنْداري يغلق حانوته، كانت دُمْيَانة وفَوَّاز قد سارا في طريقهما إلى القُرافة، المجذوب "دِعِيْبَش" يُلْقِي السلام على البِنْداري، فلا يرد).

المجذوب "دِعِيْبَش":

لَيْسَ فِيْنَــا .. لَيْسَ فِيْنَا * غَيْـرُ إِعْــلاَنِ الْهَزَائِمْ
بَبَغَــاوَاتٍ تُغَنّـــــِيْ * بَسَمَـــــاتٌ فِــيْ الْمَآتِمْ
كُلُّنَا نَبْكِـــــــــيْكِ لَيْلَى * لَيْسَ قَيْسُ الْيَـــوْمِ هَائِمْ
كُلُّنَا لِلْمَجْـــــدِ نَصْـــبُوْ * خَلْفَ جُدْرَانِ التَّمِـــــائِمْ
لَسْتُ أَدْرِيْ لَسْتُ أَدْرِيْ * أَنَّنِيْ لِلْفَجْرِ صَـــــــــائِمْ

(الطباخ"مرزوق" و"متولي" الحلواني يتهامسان باستغراب عن إغلاق البِنْداري لحانوته على غير العادة، بينما "البِنْداري" يسير إلى حال سبيله).

الطباخ/ مرزوق:

يَعِيْـــشُ الْمُلُـــوْكْ * وَأَكْـــلُ الدُّيُـــوْكْ

(وَطَبْخَـــةْ جَنَـــابُهْ * بِلَحْمَـــةْ أَبُـــوْكْ)

***

(يِقْصِفْ؟! مَا يِقْصِفْ * وِتِسْلَـــــــمْ إِيْدِيْهْ

رِقَـــابْ كُلِّ مَصْرِيْ * تِسَلِّـــــــمْ عَلِيْهْ)

***

وَدَايِنْ تُـــــــدَانْ * وَأَعْـــــــطِ تُهَانْ

(دَرَاهِـــــمْ جَنَابَكْ * مَا تِظْهَـــــرْ تِبَانْ)

حلال عليك الحظوة السلطـــانية يا ابِنْ

داري .. داري .. داري يا قلبي لا تداري.

البِنْداري: لك وقتك يا طباخ التيوس! سأعود لك.

المتولي الحلواني: صاحبك ذهب للسلطان منفوخًا، فرجع مسفوخًا على قفاه .. السلطان طلب من كل التجار الشهبندر أن يقرضوه أموالاً من أجل بناء المدارس والجوامع والقصور ..

الطباخ: ما الذي جاء بفَوَّاز شاعر السلطان إلى أرض الخان؟!

المتولي: جاء يأكل حَلْوَايَ العظيمة

وأعطاني خمسةَ دراهم في طبق الفطائر هذا.

الطباخ: هذا؟ وهل أكل منه؟

الحلواني: لا، لم يمسسه بيده.

الطباخ: حلواني! تعالَ كُل.

الحلواني: ألم أقل لك إن السر في حَلْوَاي؟

الطباخ: مغفل .. بل الأيام ستكشف السر.

***

الْمَشْهَدُ الْخَامِسُ
فِيْ (الْقُرَافَةِ الشَّرْقِيَّةِ)
(مَا بَيْنَ رِمَالِ الْمَوْتِ وَرِمَالِ الْحَيَاةِ)

(يتجه البِنْداري إلى بيت أحمد بن زَنْبَل الرَّمَّال، قُرب القرافة، بينما دُمْيَانة وفَوَّاز قد سارا في طريقهما إلى القُرافة ليلتقيا).

فَوَّاز: دُمْيَانة، حبيبتي، أين أنت؟

دُمْيَانة: فَوَّاز، حبيبي، أنا هنا.

فَوَّاز: أتلاعبينني؟

دُمْيَانة: أجل .. ابْحَثْ عني برائحة عطري.

فَوَّاز: مممم جعلتِني كلبَك! إذًا: سأعضُّك عندما أجدُك.

دُمْيَانة: هههههههه.

دُمْيَانة: ابحث يا جَرْوِي الحبيب!

(وإذا بهما يصطدم كل منهما بالآخر).

دُمْيَانة: آه!

فَوَّاز مداعبًا: هاه! أَعُضُّكِ الآن؟!

دُمْيَانة: فوااااز حسبك!

فَوَّاز: يا لَجمالك والعطر يتدفق كالنسيم وقت السحر! جعلتِ مني كلبًا يستحث النسيم بحثًا عن عطرك، وأنا الفارس الشاعر! صباح الخير يا حبيبتي ..

صَبَاحُكِ سُكَّـــرٌ مَنْثُـوْرْ * عَلَيْـهِ الشَّمْسُ وَالْقَهْـوَةْ
وَعَيْنَيْكِ الشَّـــذَا بِزُهُوْرْ * رَحِيْقُهُمَـا عَلَى رَبْـــوَةْ

***

وَنُوْرُكِ مِثْلُ جِسْرِ النُّوْرْ * أَمُـــــرُّ خِلاَلَهُ أَهْـــوَى
وَخَدَّاكِ الْبَيَاضُ الْحُـــوْرْ * فَلاَ سِـــــرٌّ وَلاَ نَجْوَى
أَيَا لَيْلاَيَ ضُمِّـــــــيْنِيْ * أَنَا قَيْسٌ، وَكَـــمْ أَهْوَى!
أحبك يا دُمْيَانة!

دُمْيَانة: وأنا لا أكف عن التفكير.

فَوَّاز: بِمَ تفكرين؟

دُمْيَانة: لن أخبرك؛ ولكن هل تسمعُ ذاك الهاتف؟

فَوَّاز: لا أسمع شيئًا سوى صوتِك العذب حبيبتي.

دُمْيَانة: لا .. صَهٍ! واصغِ.

الهاتف:

قَـدْ تَعْشَقِـيْنَ الْيَـوْمَ فِـيْ * مُـــدُنِ الْبَنَفْسَـجِ وَالْعِـنَبْ
قَدْ تَرْقُصِـيْنَ وُرُوْدَ شَـوْ * قٍ فِيْ النَّمَـــارِقِ وَاللَّهَـبْ
قَدْ تَنْشُـدِيْنَ الآهَـةَ الْـــ * خَرْسَـاءَ شَوْقًـــا مُغْتَصَبْ

قُوْلِيْ لَهُ: لاَ لَسْتُ مِلْـــــ * ـكَكَ، لَسْتَ مِلْكِيْ، فَانْسَحِبْ
قَدْ تَظْفَرِيْنَ بِلَحْظَـــــــةٍ * كَصَبِيَّةٍ تَهْوَى الشَّغَـــبْ
وَسَتَذْرِفِيْنَ دُمُوْعَـــكِ الْـ * حَمْـــــرَاءَ لَيْلاً فِيْ الْهُدُبْ
وَتُوَدِّعِيْنَ بِحُـــــــرْقَةٍ * ذَاكَ الْحَنِيْنَ الْمُسْتَلَـــــبْ
وَسَتُدْرِكِـــيْنَ نِهَـــايَةً * حَمْقَـــاءَ مِنْ فَرْطِ النَّصَبْ
لَيْسَتْ كَمُلْهِمَـــــــةٍ بها * رُوْحَ الْقَصَـــائِدِ فِيْ الْكُتُبْ

فَوَّاز: لم أسمع شيئًا
ولكني راقبتُ صمتَك طويلاً
فما أبهاكِ صامتة! وما أحلاك متكلمة!

دُمْيَانة: لا بد أن أغادر .. قلبي غير مطمئن.
فَوَّاز: لنجلس قليلاً فقط.
دُمْيَانة: أمركَ حبيبي.
(في الجانب الآخر من الجبل بيتُ أحمدَ بنِ زَنْبَلَ الرَّمَّال، يجلس معه البِنْداري حول بئر عميق من الرمل).
البِنْداري: ما كل هذا الرمل؟
الرَّمَّال:

لاَ شَأْنَ (لَكْ) ...
فِـيْ الْخَلْـفِ عَاشِقَـــــةٌ وَعَاشِـــقْ

النَّارُ تَأْكُلُ جِسْمَهَـــا قَبْـلَ الْمَحَـارِقْ
لاَ يُرْتَجَى مِنْهَـا صَلاَحٌ، كَمْ تُفَـارِقْ!
خَفَقَاتُ قَلْبِكِ فِيْ الْحَشَا مِثْلُ الْمَطَارِقْ
اسْمَعْ! فَيَهْتَزُّ الْهَوَى عِنْدَ النَّمَـــارِقْ
هَذَا اشْتِيَاقٌ يَرْتَجِيْ حِضـــــنًا يُعَانِقْ

و.. .. ..

البِنْداري:

يَكْفِيْكِ! يَا امْـرَأَةَ الْعُتَاةْ * مَنْ خَـــــانَ قَلْبًا مَتَّعَهْ
سَأَجُزُّ رَأْسَكِ فِيْ الْفَلاَةْ * وَأَجُزُّ مَنْ أَضْحَى مَعَهْ

الرَّمَّال: تمهل قليلاً.

البِنْداري: بل حان الوقت.

***

(يَخْرُج البِنْدَرايُّ ليجد دُمْيَانةَ وفَوَّازًا يسيران معًا وهما متشابكان بالأيدي ضاحكان .. تجري دُمْيَانة من ناحية، ويجري فَوَّاز من ناحية .. يحار البِنْداري؛ ولكنه يجري ناحية فَوَّاز .. يحاول فَوَّازٌ أن لا يسرع في الهرولة ليعطي دُمْيَانة فرصةَ الهروب .. يصلُ فَوَّازٌ إلى قصر السلطان"قَنْصُوْه الغوري"، فيتراجع البِنْداري، ويعود أدراجه).

الْمَشْهَدُ السَّادِسُ

مِنْ أَجْلِ الْحُبِّ

السلطانة "خَوْنَد جان" الجركسية، زوجة السلطان:

أقبل يا فَوَّاز. ما الأمر؟

فَوَّاز يُنْشِد:

هَلْ عَلَــى النَّجْـمِ مَــلاَمٌ * إِنْ بَدَا فِيْ خَــافِقَيْنَا؟!
أَوْ تَجَلَّـــــى مُقْلَتَيْـــنِ * أَوْ أَطَالَ الْمُكْثَ حِيْنَا؟!
حِيْنَ هَلَّتْ (شَمْسُ خَوْنَدْ) * تَرْقُـــبُ النَّاسَ سُكُوْنَا
نَزْرَعُ الأَشْعَارَ رَوْضًـــا * نَجْتَنِيْ فِيْ الْفَجْـرِ دِيْنَا
نَقْصِدُ الْمِعْمَــارَ أَمْسًـــا * وَغَـدًا نَبْنِـــــيْ بَنِيْنَا
فِيْ يَدِ السُّلْطَانِ تَزْهُـــوْ * لَنْ تَرَى مِصْــرُ قَرِيْنَا
لِبِلاَدِيْ الْمَجْـدُ يَصْحُـوْ * يُوْقِظُ الأَمْجَـــادَ فِيْنَا
فِيْ بِلاَدٍ فِيْ عِـــــبَادٍ * فِيْ قُلُـــوْبِ السَّـاكِنِيْنَا
هَلْ عَلَى النَّجْـمِ مَــلاَمٌ * إِنْ بَـــدَا فِيْ خَـافِقَيْنَا
بَعْدَمَا جِئْنَـا نُنَاجِـــــيْ * قَدْ لَثَمْنَا الْيَاسَمِـــــيْنَا
نَطْلُبُ الآمَـــالَ نَرْجُوْ * لاَ نُـرَدُّ خَـــــائِبِيْنَا

السلطانة: أحسنت يا شاعر السلطنة .. اطلب ما شئت

فَوَّاز: حبيبتي يا مولاتي .. إن الحبيبة في خطر .. أحببت، وكل جرمي أنني أحببت .. أحببتها .. وهي ...

السلطانة: وهي ماذا؟! صغيرةُ السن؟ أم كبيرةٌ عجوز، فأنا أعرف الشعراء حينما يحبون المستحيل، الحب غير المشروط، هههه، يا لكم من مجانين!

فَوَّاز (بخجل): بل هي .. متزوجة من البِنْداري.

السلطانة (منزعجة): ماذا؟! خائنة! ماجنة!

فَوَّاز: لا يا مولاتي، أشهدك أمام الله أنه قد جمعتنا عاطفة نقية، ولم نخطئ يومًا.

السلطانة (مُسْتَهْجِنَةً): وماذا تريدني أن أفعل من أجلكما يا فَوَّاز؟!

فَوَّاز: أتزوجها بعدما تطلق من البِنْداري.
السلطانة: سآمر لك بالحج حتى تنسى هذا الأمر.

فَوَّاز: بل سأدعو الله ألا أنساها يا مولاتي.

السلطانة:
أَنَا لَسْـتُ أُرِيْدُ نِسَا عَرْشِيْ * أَنْ يَعْشِـنْ أَسِـيْرَاتِ الْبَالْ
الْمَرْأَةُ لاَ تَهْوَى رَجُـــــلاً * يَبْنِيْهَـا يُعْطِيْهَـــــا الْمَالْ
بَلْ تَعْشَقُ فِيْ الدُّنْيَا أَمْـــرًا * يُنْسِيْهَـــا كُـلَّ الأَحْمَـــالْ
الْمَرْأَةُ فِيْ بَلَـــــــدِيْ وَتَدٌ * فِيْ أَرْضٍ تَحْمِـــلُ أَثْقَـالْ
الْمَـــــرْأَةُ دِفْءٌ مِنْ شَمْسٍ * لاَ بَدْرٌ يُهْـــــدِيْ رَحَّـالْ
أَنَا لَسْتُ أُجِيْزُ الْخَـــائِنَ فِيْ * قَصْرِيْ مَهْمَا كَانَ الْحَـالْ
اذْهَبْ وَاسْتَغْنِ أَيَا هَـــــذَا * وَارْجِعْ عَنْ هَذِيْ الأَقْوَالْ

فَوَّاز: سمعًا وطاعة.

(ينصرف فَوَّاز من القصر)

***

الْمَشْهَدُ السَّابِعُ
الرَّاعِيْ

(الريح تصفِّر وكأنها تعلن عن شيء سيحدث .. الريح تصفر وتزمجر، بينما الراعي يسير في قلعة الجبل، إذ يجد دُمْيَانة بجوار إحدى القبور، وقد نهشها الطاعون).

الراعي: رباه! من هذه؟! ومن تكون المسكينة؟!
أتكون تلك دُمْيَانة التي جُنَّ حبيبُها وتدَرْوش زوجها؟!
أهكذا يؤول الجمال؟! سبحانك يا ربي!

تُبْكِيْ وَتُضْحِكُ مِنْ جَمَـالِكْ * كُلٌّ يُسَـبِّحُ فِيْ جَـــلاَلِكْ
الْكَـــوْنُ مَرْهُوْنٌ بِـ (كُـنْ) * وَلَكَ الْقَدَاسَـــةُ فِيْ نَوَالِكْ
تُحْـيِيْ وَتَبْعَثُ أَمْـــــرَنَا * وَالْمُلْكُ فِيْ أَبْهَـى كَمَالِكْ
ســـيْرِيْ خِرَافِي، فَمَـــــا * يَبْدُوْ أَتِيًّـــــا مِنْ دَلاَلِكْ
خُلِقَ ابْنُ آدَمَ مِنْ ثَـــــرَىً * وَإِلَى الثَّرَى يُرْثَى لِحَالِكْ

***

(فَوَّاز يبحث عن دُمْيَانة في الصحراء باحثًاً عن شذاها).

فَوَّاز: دُمْيَانة! دُمْيَانة!

مَا عُدْتُ أَمْلِـكُ رِيْشَـتِيْ لِتَخُـطَّ حَـرْفًا بِالْقَلَـمْ
مَا عُدْتُ أَقْـدِرُ أَنْ أَرَاكِ، فَفِـيْكِ نَاقُـوْسُ الْكَلِـمْ
حَتَّى صَـبَاحُكِ حِيْنَ وَلَّى فَـرَّ مِـنْ لَيْلِيْ الْحُلُـمْ
أَصْبَحْتُ أَجْهَلُ مَا الْحُرُوفُ وَقَدْ بَلَغْتُ بِهَـا الْقِمَـمْ
مَا عُدْتُ، مَا عَادَ الزَّمَانُ، ما عدت ما عاد الزمـن
وَلَقَـدْ بَحَثْتُ بِحُـرْقَةٍ حَتَّى اكْتَفَـيْتُ مِنَ الأَلَـمْ
مَا عُدْتُ، مَا عَادَ الزَّمَانُ، ما عدت ما عاد الزمـن
تِلْكَ الأَمَـانِيُّ الَّتِيْ جَـاعَتْ سَتَغْـذُوْ مِنْ نَهَـم
فَلَسَـوْفَ تُطْعِمُ مَجْدَهَا مِنْ بَعْضِ خَيْبَاتِ الْهِمَـمْ
مَا عُدْتُ، مَا عَادَ الزَّمَانُ، ما عدت ما عاد الزمـن

الهاتف:

وَلَسَـوْفَ تُهْزَمُ فِيْ الْمَعَـارِكِ كُلِّهَا إِلاَّ فُؤَادكْ
وَلَسَوْفَ تُطْعَـمُ مِنْ سَرَابٍ حَالِكٍ، هَذَا مَآلُكْ
مَهْمَا رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى، كُلُّ الرُّجُوْعِ إِلَيْهِ سَالِكْ

فَوَّاز: مَن أنت؟! .. من أنت؟!

الهاتف:

إِنِّيْ الزَّمَانُ وَلاَ أَرَى لَكُمَا الْهَوَانْ
لَكِنَّهَا النَّفْسُ الَّتِيْ تهوى الأَمَـــانْ
وَإِذَا أَرَادَتْ حَيْثُ نَبْضُ الْقَلْبِ آنْ
فَالْكُلُّ فِيْ الأَكْوَانِ مَا قَدْ كَانَ كَانْ

الراعي: سِيْرِيْ أيتها الخـــراف.

فَوَّاز (لاهثًا): هل رأيتَ امرأةً ربما مرت من هذا الدرب؟

الراعي: صفها لي.

فَوَّاز:

هَذِيْ الْبُرُوْدَةُ وَاللَّهَــبْ * ضِـــدَّان فِيْ قَلْبٍ ذَهَبْ
عَيْنَانِ مِنْ خُضْرِ الرَّوَا * بِيْ وَالشِّفَــاهُ مِنَ الْعِنَبْ
وَالْجِسْمُ يَسْمُـوْ لِلسَّمَـــا * ءِ الْخَيْزُرَانَةُ وَالْقَصَـبْ
وَالْبَسْمَةُ النَّجْـــلاَ الَّتِيْ * تَجْلُوْ الشُّمُوْسَ وَتَغْتَرِبْ
مِنْ عَرْفِهَــا كَمْ ذِيْ حِجًا * يَدْنُوْ تَهِــيْءُ فَيَقْـتَرِبْ
مِنْ شَعْـرِهَا يَدْنُوْ الدُّجَى * فَوْقَ الْمَنَاكِــبِ يَرْتَقِبْ
وَيَسِـيْرُ وَسْـــطَ دُرُوْبِهِ * يَعْمِـــيْ فُؤَادَكَ يَسْتَلِبْ

الراعي: رأيتُها .. اذهب إليها
فهي هناك بين يَدَي الله يا أخي
أدركها قبل أن يأكلها الطاعون ..

فَوَّاز بعد لقائها: دُمْيَانة (يحْضُنها باكيًا)
- حبيبتي .. ماذا فعلت بنا الأيام؟!
دُمْيَانَةٌ: أبْعِـــدْ فُـــؤَادَكَ وَابْتَعِـــدْ
فَوَّازٌ: رُوْحَـــانِ حَـــلاَّ فِيْ جَسَـــدْ
دُمْيَانَةٌ: أَخْشَـــى تُصِـــيْبُكَ لَعْنَتِـــيْ
فَوَّازٌ: إِنِّـــيْ بِدُوْنِـــكِ لاَ أَحَـــــدْ
دُمْيَانَةٌ: انْطِقْهَـــا قُل: يَا مُهْجَتِيْ
فَوَّازٌ: الْقَلْـــبُ وَالْعَقْـــلُ اتَّحْـــــدْ
دُمْيَانَةٌ: الشَّمْسُ غَابَتْ فِيْ الْمَدَى
فَوَّازٌ: نَارُ الْفِـــــرَاقِ سَتَبْتَعِـــــدْ
دُمْيَانَةٌ: مُنْذُ الصَّـــبَاحِ لِمَغْـــرِبٍ
فَوَّازٌ: وَالْحُـــــبُّ رَغْدٌ فِيْ رَغَدْ
دُمْيَانَةٌ: تَتَذَكَّـــــرُ اللُّقْيَا الَّتِـــيْ
فَوَّازٌ: فِيْهَا الْمَشَاعِـــــرُ تَرْتَعِدْ
دُمْيَانَةٌ: كَـمْ قَدْ خَشِـــيْنَا بَسْمَـــةً

فَوَّازٌ: وَعُيُوْنُنَـــا كَانَتْ تَعِـــــدْ!

دُمْيَانَةٌ: وَلَكَـــمْ تَوَاعَــدْنَا هُــنَا

فَوَّازٌ: مِنْ حَيْثُ تَأْتِيْ لَــمْ تَعُــدْ!

دُمْيَانَةٌ: وَالآنَ بِتْنَـــا مِثْلَهُـــــمْ

فَوَّازٌ: جَسَــدَانِ وَالْقَلْبُ الأَحَــدْ

دُمْيَانَةٌ: فَلْيَأْخُــذُوْا مِــنَّا الدُّنَى

وَنَعُــوْدُ لِلْفَــرْدِ الصَّمَــدْ

فَوَّازٌ: فَلْيَأْخُــذُوْا مِــنَّا الدُّنَــى

وَنَعُــوْدُ لِلْفَرْدِ الصَّمَـــدْ

الهاتف: وَتَغِيْبُ فِيْ هَذِيْ الدُّرُوْبْ

وَتَمُوْتُ مِنْ فَـــرْطِ التَّعَبْ

وَتَعِيْشُ بَعْــدَكَ قِصَّـــــةٌ

تُحْكَـــى وَتُنْشَرُ فِيْ الْكُتُبْ

فَوَّاز ودُمْيَانة

***

الْمَشْهَدُ الثَّامِنُ

فِيْ (خَان الْخَلِيْلِيِّ)

(البِنْداري يرتدي لباس المجذوب، حيث تبدلت أحواله بعدما عَلِمَ بموت دُمْيَانة وفَوَّاز، والمجذوب يرتدي لباس الشهبندر، ويُسَيِّرُ حال التجارة، والطاعون ينهشُ في العباد، وينادي - كما أمر السلطان- بالعفو من الضرائب، وإطلاق سراح المساجين، وبأن يلزم الكلُّ الاعتاب الشريفة .. ويا وارثُ مَن يرِثُك؟!).

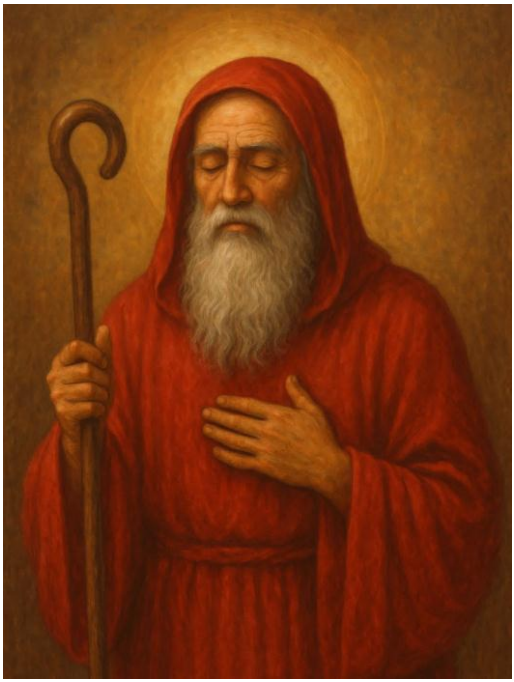

الشيخ دعيبس

الشيخ/ دِعِيْبَش:

يَا صَاحِبَ الذَّنْبِ، إِنَّ الْعَوْدَ مَقْبُوْلُ

رِفْقًـــا بِقَلْبِكَ مَقْتُـــوْلٌ وَمَتْبُـــوْلُ

الطباخ/ مرزوق (بالعامية المصرية):

(حَظَّكْ بُرْجَكْ، حَلَّقْ حُوْشْ * تِهْرَبْ مِنُّهْ، كُلُّهْ فَاشُوْشْ)

المتولي (بالعامية المصرية):

(هُسْ يَا فَقْرِيْ، هس يا فقري * سَأَدُقْ نَعْشَكْ بَالشَّاكُوْشْ

أَخْشَى خُرُوْجَكْ مِنُّهْ تِغَنِّـيْ * وِحَلَّقْ حُوْشْ، حَلَّقْ حُوْشْ)

البِنْداري:

شَوْقٌ لِمَـــنْ رَحَلُوْا * أَمْ عِطْـرُ مُشْـــتَاقِ

أَمْ قَدْ غَدَا ذِكْـــرُكُمْ * رَحْـلاً لأَشْـــوَاقِيْ

خَيْرًا فَعَلْنَـــا بِكُـــمْ * إِنِّـــيْ أَنَا السَّـــاقِيْ

فِيْكُمْ بَعَثْنَـــا لَكُـــمْ * فِيْ الشَّمْسِ إِشْرَاقِيْ

مَـاذَا جَنَيْتُ لَكُـــمْ * دُمْيَـــانَـــــــةَ؟

حَتَّى فَـــرَرْتِ وَكُنْـ * ـتِ الْكَـأْسَ تِرْيَاقِيْ

الراعي:

ضَـــــلَّتْ خِرَافِـــــــــيْ!

مِنْ بَيْنِ جُـــدْرَانِ الْحَنِيْنْ

مِنْ خَلْفِ مِصْبَاحِ السِّنِيْنْ

بُعْـــــد الأَنِيْنِ عَنِ الأَنِيْنْ

سِـــيْرِيْ لَيَالِيْ الْعَـاشِقِيْنْ

مِنْ خَلْـــفِ أَسْوَارِ الْقَدَرْ

وَلْنَحْـــوِ دَقَّـــاتِ الْخَطَرْ

وَسَـــتُؤْمِنِيْنَ وَتَمْـــرُقِيْنْ

وَسَتَعْشَقِـــيْنَ وَتَمْكُـــرِيْنْ

وَسَتَضْحَكِـــيْنَ وَتَسْخَرِيْنْ

مِنْ قَهْـــرِ قَلْـبِيْ تَنْكُتِيْنْ!

فَلْتَجْمَعِـــيْ مِنَّا النِّكَـــاتْ

لَيْسَتْ بِهَذِيْ الْمُضْحِكَاتْ!

بَلْ مُضْحِكَـــاتٍ مُبْكِيَاتْ!

***

الْمَشْهَدُ التَّاسِعُ
الْخِيَانَةُ

السلطان:

الْمَوْتُ يَحْصُـــدُ فِيْ * أَرْوَاحِ مَنْ قَرِضُوْا
وَالْغَـــدْرُ رَائِحَـــةٌ * تَسْـرِيْ وَ تَعْتَرِضُ

السلطانة:

لَكِنَّكُـمْ هَـــرَمٌ * مِـنْ بَعْـــدِهِ هَـــرَمُ
جَيْشٌ بِعُـــدَّتِهِ * مُلْـكٌ وَلَوْ عَلِمُـــوْا

السلطان:

إِنِّيْ لَهُمْ رَصَـــدٌ * فِيْ حَصْدِ مَا بَذَرُوْا
ذَيْلاً وَلاَ تَبَعًـــا * لَـــمْ أُبْقِ، لاَ أَذَرُ

السلطانة:

نَصْرٌ مِنَ اللهِ فِيْ * نَصْرٍ، لَكُمْ تَبَعُ

السلطان:

ذِيْ لَحْظَـةٌ قَدْ دَنَتْ * وَالْجَـيْشُ يَقْتَــرِبُ
وَالْحَــرْبُ تَطْلُبُنَـا * وَالْمَكْــرُ يَنْتَقِــبُ
إِنْ جَاءَكُــمْ خَــبَرٌ * لِلْمَوْتِ يَنْتَحِــــبُ
فَاسْمِيْ لِذَا شَــرَفٌ * فَخْــرٌ وَمُنْتَخَــبُ
رَسْــمٌ عَلَى أَرْضِنَا * بَاقٍ لِمَــنْ نُجِبُوْا
تَارِيْخُ دَوْلَتِنَــــــا * لِلشَّمْسِ يَنْتَسِــبُ
يَكْفِيْ بِذَا شَــــرْفٌ * أَجْــــدَادُنَا وَهَبُوْا
لِلدَّوْلَةِ الْكُــــــبْرَى * تَتَارَهُــــمْ غَلَبُوْا

الرَّمَّال: مولاي السلطان ..

طَـرِيْقُكَ نَصْــرٌ وَفَتْــحٌ كَبِيْرْ
بِــدَابِقَ تَقْتُــلُ جَيْشَ الْمُــغِيْرْ
وَتَرْجِــعُ بَعْـدَ الْحَصَادِ الْكَبِيْرْ
بِأَنْفَــارِ حِصْــنٍ، بِأَقْــوَى نَفِيْرْ

***

وَجَيْشَ الْمَمَالِكِ فَاحْذَرْ وَحَاذِرْ

فَبَعْضُ الْخِيَانَةِ تُوْدِيْ الْمَقَـابِرْ

وَخَـــوِّنْ وَفِيَّكَ دَوْمًـــا وَبَادِرْ

فَغِمْدٌ بِظَهْــرِكَ نَابُ الْكَـوَاسِرْ

يَعِيْشُ بِظِلِّكَ وَهْـــــمُ الْجَوَاسِرْ

سَيَسْعَى لِمَوْتِكَ نَصْرُكَ خَاسِرْ

يُحَدِّثُ عَنْكَ وَيُخْفِيْ الدَّفَـــاتِرْ

وَيَأْمُرُ جُنْدَكَ وَجْهُـــــهُ سَافِرْ

وَصَدِّقْ لِقَوْلِيْ، فَذَا الرَّمْلُ قَاهِرْ.

***

(يخرج السلطان على رأس الجيش، ويحاول خاير بك أن يقتل أحمد بن زَنْبَل الرَّمَّال، فيختفي بعد أن يرفع جبته فوق رأسه بذراعه، فتسقط الجبةُ، ويختفي في الحال، ثم يجتمع خاير بك مع المماليك الجُلبان).

المعركة .. معركة مرج دابق ١٥١٦م.

الغربان تنعق في كل مكان .. صوت الغربان يتصاعد شيئًا فشيئًا .

خاير بك ملباي

خاير بك ملباي (يُحدث المماليك الجُلبان):

كَفَاكُــمْ قِتَــالاً بِلاَ أَيِّ طَائِلْ
فَأَنْتُمْ تُحِــبُّوْنَ لَحْــمَ الأَيَائِلْ
دَعُوْهُ وَحِــيْدًا فَــرِيْدًا يُقَاتِلْ
فَلاَ خَيْرَ فِيْهِ، فَسَهْمُــهُ نَازِلْ
وَلاَ تَحْمِلُــوْنَ عَلَيْهِ النَّوَازِلْ
دَعُوْنَا نُرَاقِبُ عَهْدَ الدَّوَاخِلْ
وَنَرْسِمُ رَسْمًا يُتِيْحُ التَّوَاصُلْ

خاير بك (يحدث القَرانيص):

يَرَاكُمْ خِرَافًا وَأَنْتُمْ أُنَاسْ * هَلِ الْجَيْشُ رُتَّبٌ دُوْنَ الْمِسَاسْ
لَكَمْ قَدْ نَصَحْتُ وَقُلْتُ أَجَزْتُ * فَلَيْسَ بِجَيْشِكَ تِبْرٌ وَمَاسْ
يُوَلِّيْ الْجُنُــوْدُ الْقُدَامَى قِتَالاً * وَيُعْطِيْ الْكِبَارُ مَرَامَ اللِّبَاسْ
فَلَيْسَتْ بِقِسْمَةِ عَدْلٍ أَرَاهَا * وَظُلْــــمٌ كَبِيْرٌ وَمُحْقٌ وَبَاسْ

القَرانيص: خاير بك ..

فَبَلِّغْهُ عَنَّا، بِأَنَّا سَــــــوِيَّةْ * قُتِلْنَا لِنَدْفَعَ شَــــــرَّ الْبَلِيَّةْ
فَنَحْنُ الْمَمَالِكُ أُسْدُ الْمَعَارِكْ * وَحَقًّا وَصِدْقًا لِأَجْلِ الْقَضِيَّةْ
وَنَحْنُ غَلَبْنَا التَّتَارَ زَمَــــانًا * وَكُنَّا مِثَالاً جُيُوْشًــــا قَوِيَّةْ

فَإِنْ شِئْتَ تَغْلِبْ عَدُوَّكَ فَاعْدِلْ * بِحَقٍّ وَحُكْمٍ بِلاَ عُنْصُرِيَّةْ
فَكُلُّ الْقَرَانِيْصِ غَضْبَى، فَحَاذِرْ *إِذَا مَا أُصِبْنَا بِنَارِ الأَذِيَّةْ

السلطان (يحدث الجيش):

يَا جُنُوْدِيْ، صَــبْرُ سَاعَـةْ * فِيْ الْحُرُوْب السَّمْعُ طَاعَةْ
جَيْشَــنَا، فَاثْبُتْ وَقَـــاوِمْ * أَنْتُمُ أَهْــــــــلُ الْبَرَاعَةْ
صَــبْرُ بِرٍّ، صَبْرُ سَــاعَةْ * يَا جُنُوْدِيْ، صَــبْرُ سَاعَةْ
أَيُّهَـــا الْجُلْبَانُ عُـــوْدُوْا * مُسْتَطَــاعٌ، مُسْتَطَـــاعَةْ

(يختفي السلطان شيئًا فشيئًا).

الراعي:

يا مولاتي، لقد انهدم الجدار الذي دام ثلاثةَ قرون.

الهاتف:

فَلْتَسْمَــعِ الأَرْض النُّفُــوْرْ
بَيْنَ النَّوَارِسِ وَالصُّقُــوْرْ
وَالأُسْــدِ وَالذِّئْبِ الْعَقُــوْرْ
مَاجَتْ بِنَا حَـالُ الْعُصُـوْرْ
وَسَيَشْـرَبُ الأَتْرَاكُ بُــوْرْ

أَحْلَى دِمَــاءٍ مِــنْ عَبِيْــرْ
وَعَلَى عِظَــامٍ لَـنْ تَبُــوْرْ
سَيُقَامُ عَرْشٌ فَيْ الْقُصُوْرْ
فِيْ قَلْبِ مِصْرِيٍّ صَــبُوْرْ
تَحْيَا! أَيَا وَلَدِيْ الْجَسُــوْرْ
تَحْيَا! أَيَا وَلَدِيْ الْجَسُــوْرْ

***

(يسدل الستار على دولة المماليك
التي عاشت ثلاثة قرون)

الفصلُ الثاني

حدائقُ الحُبِّ وَثمارُ الخِيانة

الإدْريسي

بدايةُ الزَّمَن:

مِصرُ تحتَ حُكمِ طومانَ باي

سنةَ ١٥١٦

قادِنُ وآرن (جواسيسُ العثمانيين)، والشيخُ إدْريسُ زعيمُ المناضِلينَ.

- استندتِ الأحداثُ التاريخيَّةُ الرئيسيَّةُ إلى ما وردَ في مؤلَّفات مؤرِّخي العصر المملوكيِّ والعثمانيِّ حَوْلَ سيرةِ السُّلطان قَنصوةَ الغوري والسُّلطان طومانَ باي.

الأحداثُ الدراميَّةُ في الحيِّ الشعبيِّ وبعض الشَّخصياتِ الأخرى اقتَضَتْها الحبكةُ الدراميَّةُ.

الشَّخصيّاتُ:

- طومان باي
- خاير بك ملباي
- الأمير طومان جا (طومانجا الحسني)
- الأميرُ قانصوه الأجرود
- الأميرُ علان الطواشي
- الأميرُ جانبك اليوسفي
- الأميرُ قانصوه الرماح
- الأميرُ قرقماس الجركسي
- الأميرُ يشبك الدوادار
- الأميرُ أزبك الدوادار
- السلطانُ العثمانيُّ سليمُ الأوَّل
- قادِن وآرِن
- ابنُ زنبلَ الرِّمال

من الحارةِ الشعبيَّةِ:

- الإدْريسي شيخُ العطّارين
- الشيخُ دعيبش
- شيخُ العربانِ مسروق
- البنداري شاهبندرُ التُّجّارِ
- المتوَّلِي الحلواني
- طباخُ السوقِ مرزوق

المشهدُ الأوَّلُ

بعدَ انتشارِ الطاعونِ

"وكأنَّ القاهرةَ تَبكي نَفسَها" - ابنُ إياس.
(في خانِ الخَلِيلي حيثُ كانَ الحلوانيُّ متوليٌّ وطباخُ السوقِ مرزوق والبنداري شاهبندر التُّجّارِ، وحولهم يسيرُ بالمباخرِ الشيخُ دعيبش)

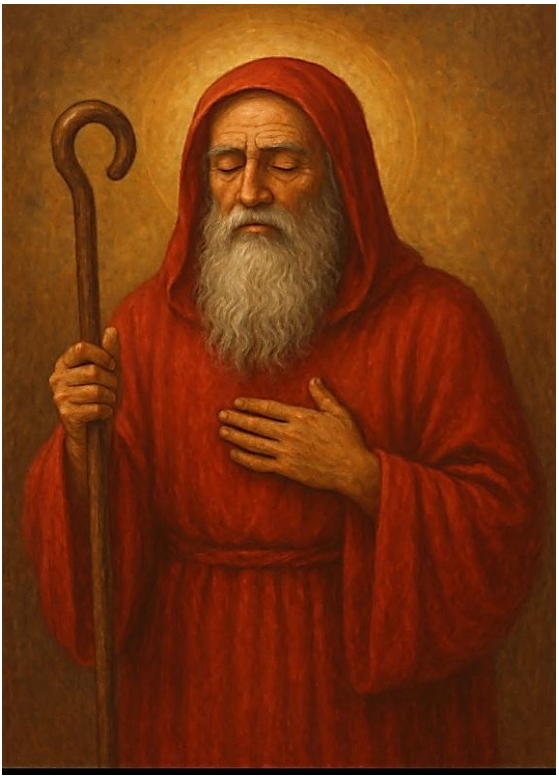

الشيخ دعيبس

الشيخ دعيبش:

يا كَعْبَـةً فــي الخافِقيــنَ تَطــوفي
وأنا أزفُّ إليــكِ نــورَ طِيــوفي
سَلَّمْت يَمينَكِ حينَ هلت في يَدي
وأنـــا أقبـــلُ فيكِ مَـلءَ كُفوفـي
ارزُقْنا الحَــجَّ قَبْلَ المَوتِ يا رَبُّ.

الحلواني (ساخرًا):

بل امـلأ كفَّكَ كافـــورًا
واستنشقْ خلًّا وبُخــورًا
فلَعَــلَّكَ ولَعَـلَّكَ تنجـــو
منَ مَرَضٍ يَبغي مَقْبُورًا
أتَظُــنُّ في الحــيِّ نجاةً
وتَحُجُّ حَجًّا مَبْرورًا؟

مرزوق طباخ السوق:

يوزِّعُ البنداري الأَكفانَ مَجَّانًا لِوَجْهِ اللهِ، لقد تَغَيَّرَ كثيرًا بَعدَ أن خَذَلَتْهُ زَوجتُهُ دَميانَة.

موتٌ يُشَذِّبُ لِحيةً ويُعـَذِّبُ القلبَ الحَنــونْ
وَحياة مَخْذولٍ كَموتٍ، راعَهُ زَوْجٌ خَئوونْ
فَلْتُدْرِكْكِ الرَّحْمَةُ يا دَميانَة

الإدريسي: فَلْتُدْرِكْكِ الرَّحْمَةُ أيضًا يا زَوْجَتي الحَبيبَة!
لا تَسْكُبوا على الجراح خَلًّا يا إخواني.صباح المسك والعنبر

الحلواني :
صباح المسك والعنبر يا شيخ العطارين

(قادِن الأرْبيعيَّةِ التُّركِيَّة البارِعة الجَمالَ الفارِعَة الطُّول، تَتَخَفَّى في زِيِّ امرأةٍ مِصريَّةٍ وتذهبُ إلى شَيخِ العطّارين، تتودَّدُ له وتشتري بخورَ الكافورِ من أجلِ التَّعقيمِ، والعينُ تُخفي أكثرَ مِمّا تُعلِنُ.)

قادِن (بتَغنُّجٍ ودِلالٍ):
يا شيخَ العطَّارينْ!!
يتودَّدُ قلبي للتِّينْ
ليذوقَ شَهْدًا ورُضابًا
مِن تِلكَ القُفَّةِ في الحِينْ
وأريدُ من ذاكَ كافورًا
نُحرقُهُ مِن أجلِ لَعينْ

شيخُ العطّارين (مستنكِرًا):
ما لَكِ يا غُصْنَ الأَفنَانْ!!!
تَتلَوى مِثلَ الثُّعْبانْ
وتُناجي الحَضْرَةَ والجانْ
ما بَعَثْكِ إلاَّ شيطانْ
فلتَخْفِ عن وجهي الآنْ

قادِن تَهْمِسُ بِدِلالٍ:
يا شيخي، وَجهُكَ يأسرُني
وأراكَ سَتَصــدِقُ ظَنّــي
أدْخِلْنــي دُكانَــكَ تَــوًّا
تَتَأكّـَدُ مِن قَلبي أنّــي
أحبُّــكَ يــا إدْريســي

شيخُ العطّارينِ الإدريسي: صَهْ.. صَهْ.

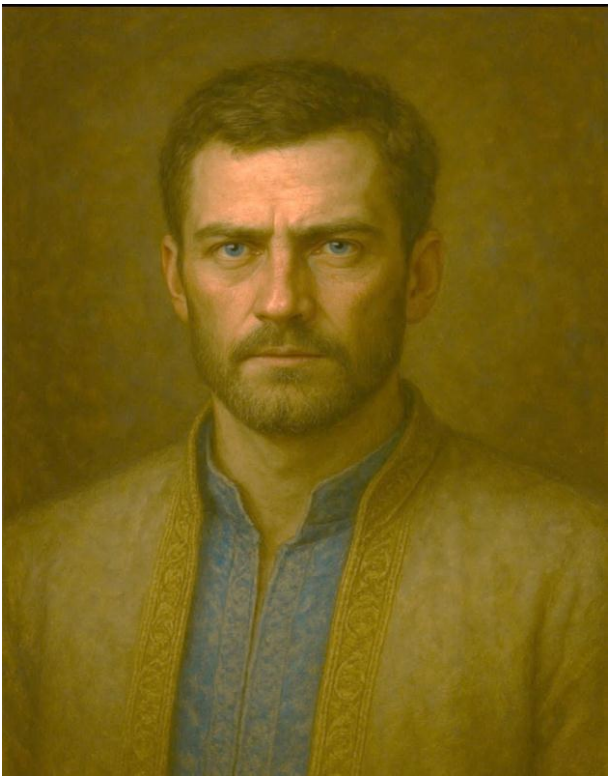

شيخ العطارين

(شيخُ العطّارينِ يدخلها إلى داخِلِ العطّارةِ حتى لا يراهُ المارَّة ، فتقبِّلهُ قادِنٌ في جبينِه كَعَلامَةٍ على حُبِّها له؛ فتدورُ الدُّنيا من حولِه ثم تنصرفُ. تسيرُ مبتعِدَةً حتى تَصِلَ إلى زقاق مهجور خلف خان الخليلي . يدركها آرن حَيثُ كان مُتخفِّيًا في زِيِّ شَحّاذٍ في السوقِ)

(آرِن ينهالُ عليها ضَربًا شَديدًا جَرّاءَ ما فَعَلَتْهُ في السوقِ.)

آرِن (وهو يَضْرِبُها):

أَمَرْتُــكِ أن تَأتي إلَــيَّ
بالعَسَسِ وأخبارِ الطَّيِّ
غَيَّرتِ الخُطَّةَ والحبْكَةَ
تَرْعِينَ ماشِيَـةَ الغَــيِّ
مــا قِصَّةُ ذاكَ العطّـارِ
مِصْرِيٌّ يَحْنُو للضي!!
هيمانٌ مِنْ أَجْلِهِ جِئْنا؟!
أَم جِئْنا لِخَرابِ الحَيِّ؟

قادِن (بِدَهاءٍ وخِبْثٍ):

الشّيــخُ يُرسِــلُ أَزْهــارًا
وعُطـورًا ليلًا ونهــارًا
أخبِــرْهُ وبِحَــقِّ هُيامــي
يُرسِلُني للقَصْرِ السّامِي
أتَسَمــعُ حينَها أخبـارًا؟

أَتَعَسَّسُ في القَصْرِ جَهارًا؟
وكأنّــي أساعــدُ عطّــارًا
يُرسِلُني للقَصْرِ، وشُكــرًا

آرِن (مندهِشًا):
ونَدخُلُ في قَصْرِ طومان
نَتَعَسَّسُ كُلَّ الأَحْوالْ
ونُبلِّغُ سادَتَنا حَتمًا
لِيَسْوِقُوا كُلَّ الأَهْوالْ
ولِتَكُنْ مَعْرَكَةٌ كُبرى
وَنَنالُ السُّلْطَةَ وَالمالْ
وَتَكُونُ لِلتُّركِ الغَلَبَةُ
والحُكمُ وَكُلُّ الآمالْ
إيقِيت أفندِيم، إيقِيت أفندِيم.

***

إظلام

□المنظَرُ الثاني

(تتَّجِهُ قادِن إلى شيخِ العطّارينِ الشيخِ الإدْريسي، تتركز الإضاءة على محل العطارة)

قادن وشيخ العطارين

قادِن (بِتَغنُّج):
ماذا يَحْدُثُ في قَلْبِي
مُنذُ رَأيتُكَ...؟؟
وكَأَنَّكَ بِجَناحٍ تَطْفو،
في قَلبي نَهْرٌ مِن خَمْرْ.
أشتاقُ لِكأْسٍ يُربِكُنِي،
يُنسِينِي تَابِعَةَ الأَمْرْ.
عَيناكَ وَسِحْرُكَ وَالذَّنْبُ
يَتَبَرَّأُ مِن ذاكَ الأَسَرْ.
وكَأَنَّكَ قَد جِئْتَ إليَّ،
تَأْسِرُني في غرامِك سِحْرْ.
قَدْ يُغْدو لِلشِّعْرِ سِحْرٌ
إذْ هَمَسَ فُؤادُكَ لِلْبَدْرْ.
وتُنادي مِن أجْلي قِيسًا،
وأُنادي لَيْلَى والهَجْرْ.

الإدْريسي :
الحَرْفُ يَعْصُرُني حُبًّا،
واللِثْمَةُ تُوَقِـظُ لِلْفَجْـرْ.

وأفكّرُ في ليلةِ أَمْسٍ،
تَبعَثُني لأشمَّ العِطْرْ.
يَنبَعِثُ مِن روحِكِ حرفٌ،
يَكْتُبُني قَلْبُكِ في شِعرْ.

قادِن:
تُلْهِمُني أجمَلَ كَلِماتٍ،
تَكْتُبُني عِشقًا في سَطْرْ.
وأعودُ لِلْعَهْدِ الأوَّلِ،
والطَّوْقُ في ذاكَ النَّحْرْ.

شيخُ العطّارينِ الإدريسي :
ومعَ ذلك...
ما كانَ كانَ وما حَدَثْ
من قُبْلَتَينِ على الجَبِينِ
كانَ أمرًا وانبَعَثْ

قادِن (بِحُزنٍ مَصطنَع):
هيهاتَ أَنَّكَ ناسياً منسِيًا
وفُؤادُ عَقْلِكَ نَبْضُهُ بِيَدِيَا

حارُ القَليبُ إذ يَظُنُّكَ مَغْرَمًا
أنتَ الحَديثُ، نَبْضُهُ المرويّا

شيخُ العطّارينِ:
لَحْنُ الحَياةِ رأَيتُهُ وسمِعْتُهُ
لَمّا نَظَرتُكِ في سَمائي ثُريا
ورَأَيْتُ قَلْبَكِ، يا لِوَجْهِكِ يَرتقي
نُورٌ، ضِياءٌ في جَمالِ مُحَيا
يا ويلَ قَلْبي مِن عُيُونٍ تَرتَجي
مِنّي هُيامًا طاهرًا ونَقيّا

قادِن :
يا سِحرَ بابلَ هل بِرُوحي أَفْتَدي؟
أنتَ العفافُ صلاتُهُ قُدسيا

شيخُ العطّارينِ (حائِرًا):
وهل أنا بِتِلكَ الفِتْنَةِ التي تُوقِعُ امْرَأَةً جَمِيلَةً مِثْلَكِ، تَتَرَدَّدُ عليَّ كُلَّ ثَلاثَةِ أَيّامٍ تَطْلُبُ عَذبَ الكلامِ والعِشقَ الهُيامَ؟ دَعِينِي أَتَحَسَّسُ جَبِينَكِ، رُبَّما تَكونين ما زِلتِ مَرِيضَةً بِالْحُمَّى.

رَجُلٌ يُطاردُهُ القَمَرْ (يَلْمِسُ وَجهها)
ينهالُ مِن عَذْبِ الفِكَرْ
ماذا عَلَيَّ الآنَ أَفْعَلُ؟
هَل لِذَنبِي مُغْتَفَرْ!!!

قادِن معاتِبَةً:
إذنَ فأنتَ لا تُصَدِّقُني
ولا تَعلَمُ أنّي سَكَبْتُ الوَقتَ في مِرْآتِ عُيوني
لكي لا أَشعُرَ الوَحْشَةَ في انتظارِك
أُمْتَهَرتُكَ بِرُوحِي
لأَزِفَّ نَفْسي إليك في حُجراتِ الأماني الضّائِعة
وأنتَ مَاذَا قَدَّمتَ في المُقابِلِ سوى بضع دَقائقٍ وأنتَ تَخشَى مِن حَوْلِك!!!!

شيخُ العطّارينِ الإدريسي:
أأنا فعلتُ كلّ هذا؟؟؟ أنتِ يا سادِنَةَ فُؤادي

قادِن:
ألا تَعلَمُ أنّي...
نَثَرتُ الوَرودَ في طَريقِ عودَتي مِن عِندِك حتى يَتَسَنّى لَكَ مَعْرِفَةُ العُنوانِ، فلم تَهتَدِ!!

شيخُ العطّارينِ الإدريسي:
هل حَقًّا تُريدينَ مِنّي أن أَتَوَسَّدَ فِراشكَ الدافئَ وأنهَلَ مِن ثَديِ أيامِكَ عشقاً يُعيدُ لي الحَياةَ؟ آهٍ كم أَنتِ حَياةٌ!!!

قادِن :
ألا تَعلَمُ أنّي...
كَتَبْتُ الشِّعرَ الذي يَئِنُّ بالحنينِ فَوجدتُكَ تُبَعْثِرُ الحُروفَ في مَرايا البَحرِ لِتَرَى عُيُونَكَ الزَّرْقاءَ، التي في عُمقِ البَحرِ، فَكَفَفْتُ عن الشِّعرِ واستبدلتُ الحُروفَ بِخُيوطٍ من الأملِ وبعضِ المعانِي البَسيطَةِ التي تَستَطِيعُ استيعابَها بِعَقْلِكَ الذي لا يَسَعُ كلّ هذه الرُّموزَ التي تليقُ بساحِرَةٍ مِن العُصورِ الوسَطى.

شيخُ العطّارينِ الإدريسي:
وكيفَ لِي حتّى أُصَدِّقَ هذاَ الحُلمَ الجَميلَ؟ أَلِي أَنَا كُلُّ هذا العِشقِ!!! كُلُّ هذا الشِّعرِ!!!

قادِن :
مَعذورٌ أنتَ الذي وَقَفتَ في طَريقي واعترضتَ مَسيري نَحوَ الخُلودِ فتأمَّلتُكَ وأخذتُ قَيلولَةً مِن عَناءِ السَّفَرِ عندَ طاولَتِكَ التي تَقرَأُ عليها أَسفارَ الحَياةِ وتَحفَظُها جيّدًا بل وتَتلوها على من حَولَكَ. أما أنا فَلَيسَ لي سِوى رَحيقِ البَنفسَجِ الصَّادقِ الذي أُنثِرُهُ في طَريقي حتى يَخْتَبِئَ الشّوكُ مِن الوُرودِ. لابُدَّ لي أن أُكمِلَ المَسيرَ وأنتَ تَظلُّ تُردِّدُ أَسفارَ الحَياةِ، وكُلٌّ مِنا لابُدَّ أن لا يعترِضَ مَسيرَ الآخَرِ مرّةً ثانيةً حتى لا تَختَلَّ سُنَنُ الكونِ.

شيخُ العطّارينِ الإدريسي :
أرجوكِ كَفِّ عن المِراوَغَةِ وتلكَ البَلاعَةَ اللفظيّةِ التي تُجِيدينَ، لم أَعد أَحتَمِلُ كلّ هذا الدَّلالِ!!
قَد عُدْتُ رَهْنًا لِانتِظارِكِ في غَدِي
وَوَدَدتُ ألاّ لا أُعيدَ تَرَدُّدي
وَوَدَتُ قَلْبِي لا يَراكِ مِنجَدي
لكِنَّني بَيْدَيْكِ!! إنّي اهتَدِى

نَبضاتُ قلبي قَد تَسارَعَ خَطْوَها
فَتَكَادُ تَمشي والجَوارِحُ تَقتَدِي
القَلْبُ عِنْدَكِ والرّوحُ مَلِكُكِ
والسَّعادَةُ في يَدَيَّ
مَنْ أَنتِ يا حَبيبَتي؟

قادِن: أنا مَريضَةٌ بِحُبِّكِ
أَنتَ الشِّفاءُ ولي في حُبِّكَ داءٌ
أَنتَ الجَمالُ، عُيونُكَ زَرْقاءُ
تَمشي كَما سَهْمُ النَّشّابِ وعَالِيًا
جُزَتْ البَهاءَ ونُورُهُ الوَضاءُ
هي ذي ثَوانٍ أَلْتَقيكَ وأَلْتَقي
فيها السَّعادَةَ والحنينَ رِداءُ
أنا مذ كَتَبْتُ الشِّعرَ إنّكَ ملهمي
أنا مذ كَتَبْتُكَ كُنْتَ أَنْتَ الرّاءُ
يا إدريسي!!!

الشيخُ دعيبشُ المَجذوبُ ينشد أمام الدكاكين:
لَبيكَ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخرةْ
ما لي إذا الدُّنيا لِباسٌ سافِرَةْ

يَغْتَرُّ مَنْ يَغْتَرُّ؟ فهي قاهِرَةْ
لَبيكَ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخرةْ
وغَدًا سَتأتينا رِياحٌ غابِرَةْ
يَغْتَرُّ مَنْ يَغْتَرُّ؟ فهي القاهِرَةْ

الحلوانيُّ متوليٌّ:
يلوكُ الديكُ قِطْعَةً مِـن هُـرَاء
فيخرُجُها لنا ثمــرَ الحَشيشْ
ويَشرَبُ مِن رَحيقِ السُمِّ غَبًّا
فينبُتُ قلبُـهُ عُرفًــا وَرِيشْ
وَذَقْنٌ في نيرانِ العِشقِ صَبًّا
وشيــخٌ قــد تَكَسّــرَ فَشافِيشْ
ما الذي يَحْدُثُ فَوقَ طاوِلَةِ شيخِ العطّارينِ الإدريسي؟؟؟
أليسَ ذاكَ هُوَ ذاكَ التَّقِيُّ الوَرِعُ الذي ما ابْتَغى لنفْسِه زَوجَةً بعدَ مَرورِ ثَلاثَةِ أعوامٍ على وِفاةِ زَوجَتِهِ؟

طباخُ السوقِ مرزوقُ:
هي لَعْنةُ هذا الحَيِّ، من قَبلُ كانَت دُميانَةُ وفوازٌ يَرْحَمُهُما اللهُ، والآنَ المرأةُ المَلْثَمَةُ وشيخُ العطّارينِ.

الحلوانيُّ متولي (مُمْسِكًا بمنشَّةٍ لِيطْرُدَ الذُّبابَ):

وَتَمُرُّ عَلَيْنا الأَعيادُ
والشمعةُ في القلبِ تُقادُ
والكَعْكَةُ يخْبِزُها قَلْبِي
فَتَمِيلُ السِّينُ وَالصَّادُ

طباخُ السوقِ مرزوقُ:

أَربَعَةُ شُهورٍ يا وَلَدي
والفَقْرُ يَعلُو، يَزدادُ
يا رَبِّ أَغِثْنا مِن ضِيقٍ
طاعُونٌ يَحصُدُ وَقّادُ

شيخُ العطّارينِ الإدريسي :

الجَميعُ بدا مُنْتَبِهًا لنا يا حَبيبَتي
أنتِ تُبالغين في التَّعبيرِ عمّا يَجيشُ في صَدْرِكِ، سَوْفَ يَتَحَدَّثُ عَنّا الجَميعُ الآنَ
اعقلي يا مُجْنُونَةُ!!

قادِن (بلهفَةٍ):

عِشْ مَعِي تِلكَ اللحظاتِ ودَعْكَ مِنَ النّاسِ.

شيخُ العطّارينِ (هامِسًا):
كيفَ والجَميعُ أصبحَ يَتَحَدَّثُ عَنّا؟

قادِن:
لقد تَعِبْتُ مِنْكَ!!!
مُتْعَبَةٌ مِنكَ ومِن عَقْلِكْ
عَيناكَ الهادِئَةُ وصَوْتُكْ
وهدوءُ البَحْرِ وحُروفٌ
تَختالُ وشَوْقٌ في صَدْرِكْ
مَا قلتُ شِعْرًا في عُمري
وَكِتَبتُ يَتَغَزّلُ حُسَنكْ

شيخُ العطّارينِ الإدريسي :
لم أَذنَبْ يومًا يا قادِنُ
وعَشِقتُ ذُنوبِي في ذَنبِكْ
لم أَخطِئْ يومًا في عُمري
سِوَى حِينًا لَمّا أَحبَبْتُكْ

(آرِن يتَجَوَّلُ في زِيِّ الشُّحّاذينَ، مُتَّربُ الجَبِينِ، مُتَّسِخُ المَلابِسِ. يَقْتَرِبُ مِن قادِن هامِسًا):

كَفاكِ عِشْقًا وهيامًا
سيَهِيمُ بِعِشْقِكِ أَيّامًا

قادِن (بِهَمْسٍ مترقِّبٍ): إيڤِيت.

آرِن:
هَلْمي في تِلكَ الخُطَّةْ، وإلّا إنّا في وَرْطَةْ.

قادِن:
إيڤِيت، إيڤِيت.
(قادِن تتَّجِهُ لمتَوَلِي الحلواني ومرزوق الطباخ لتَشتري بعضَ الحلوى والطَّعامَ مُحاوِلةً لِيَكفُّوا ألسُنَهُم عَنْها لتستَكْمِلَ خُطَّتَها نَاحِيَةَ قَصْرِ طومانَ باي)

قادِن :
هل عندَ المتولِّي حَلوى؟
آكلُها في ليلِ النجـوى؟
فَاللَّيلُ في الحَـيِّ طَويلٌ
يَحتـاجُ حلاوَتِكِ لِنَهْـوَى

المتَوَّلِي الحلواني:

حَلواي مِن أجْلِ عُيُونِكِ
تَتَبَسَّمِ تَضعِفُ لا تَقْوَى
وتَقول؛ خُذيني يا قَلبي
أنا أَهوى، بِاللَّهِ أَهوَى!!

قادِن:

خُذْ دَراهمَك واحتفِظْ بالحَلوى.

الحلواني:

أكلَ هذهِ الدَّراهِم؟ لقد ذكرَتْنِي بالشّاعِرِ فَواز، كانَ يُعطيني الدَّراهمَ ولا يَأكُلُ الحَلوى . غريبةٌ تِلكَ المَرأَة.

(تَتَّجِهُ قادِنُ إلى مرزوق الطباخِ وكَأَنَّها تَسِيرُ على قُلوبِ الجَميعِ)

قادِن:

هل أَجِدُ الآنَ طعامًا؟
أَم فَقْرا خَيَمَ أعوامًا؟
أَبتــاعُ بِثَلاثِ دَراهِمَ
أرغفـةً أو لَحـمَ يَمام

مرزوق الطباخُ:
اشتِرِ قَلْبِي وأَطبُخْيه
وبالفـــريكِ حَضِّــريه
وفَوقَ صَدْرِكِ وارفِعيه
يا لَهَوي!!!!

(قادِن تَرْمي لهُ عِدَّةَ دَراهِمَ ولا تأخُذُ منهُ شَيئًا)

مرزوق (بصَوتٍ عالٍ غامِزًا):
يا حلواني، رحمه الله الشاعرَ فَوازَ.

الحلواني:
وَيَرحَمنا جَميعًا يا أخِي، ماذا يَحْدُثُ في الحَيِّ؟

مرزوق:
لا أَدرِي، مضحكات مبكيات .

الإدريسي (مُغتاظًا يَجِزُّ على أسنانِهِ):
ماذا تَفْعَلِينَ مَعَ الحلوانيِّ والطَّباخِ؟؟؟

قادِن:
أُحاوِلُ أن أَرشُوهُم بالدَّراهِمِ لِيَدَعُونَا و شَأْنَنَا.

الإدريسي:
هؤلاءُ يُمكِنُهم أن يَدْفَعُوا مِن أموالِهِم لصَيْدِ نَمِيمَةٍ على الإدريسي، لم أَظُنّ أنّكِ بهذا الغباءِ.

قادِن:
إذن دَعْنِي أَعْمَلَ مَعَك لتَظَلَّ في قَلْبِي وعَقْلِي ورُوحِي ولن آتِي للحيِّ إلاّ قَليلاً.

الإدريسي:
ماذا تَعْنِينَ؟

قادِن (بِتَغنُّجٍ):
كُلَّ خَميسٍ أيُها الشَّقِيُّ.

(وهكذا دَخَلَت قادِن القَصرَ)

طومان باي

المنظَرُ الثالث

قلعة الجَبَل

في الإيوانِ السُّلطانيِّ

قادِن وآرِن يَتَجَسَّسَانِ على طومانَ باي

(سَريعًا ما انضَمَّا بتدبيرِ الحِيَلِ وبمُساعَدَةِ خايرِ بك ملباي. قادِن انضَمَّت إلى خادماتِ الإيوانِ السُّلطانيِّ وانضَمَّ آرِن إلى جنودِ السُّلطانِ، وأصبحَا يَنقُلانِ أخبارَ الجَيْشِ وطومانَ باي إلى سليمِ الأوَّلِ في دمشقَ، حيثُ كانَ مُستَقرًّا هناكَ بعد القضاءِ على حُكمِ قَنصوةَ الغوري مُنتَظِرًا دُخُولَ مِصرَ.)

بابُ الوزيرِ - مَنطِقَةِ الدَّربِ الأَحمَر

غُرفَةٌ كَبِيرَةُ الحَجْمِ بها طاوِلَةٌ كَبِيرةٌ والكَثيرُ مِنَ المَقاعِدِ، مَقَرُّ مقابَلاتِ المَمالِيكِ الجِراكِسَةِ الذين خانُوا قَنصوةَ الغوري، وهو مَقرُّ خايرِ بك ملباي السِّريُّ لمُقابَلَةِ الجواسيسِ قادِن وآرِن.

خايرُ بك ملباي:

أهلًا وسهلًا بحُلَفاءِ الغَدِّ!!!

فلتُبلغوا مني التَّحيةَ

للبَهِيَّةِ والعلْيَةْ

وبالولاءِ تدركون

ما لم أحققه عَشِيَّةْ

واللهُ حَتمًا سَيُوَفِّقُ

ما فيه خيرٌ للرعيَّةْ

خايرُ بك ملباي

آرِن (بِغطرَسَةٍ):

إيهٍ إيهٍ! خَائِنُ بك أقصدُ خايرَ بك!

الدَّوْلَةُ العُثمانيَّةُ لا تَنسى حُلَفاءَها.

مِن العُهُودِ للسلطنة

والمَجْدُ تَدْرِكهُ هنا

وتكونُ والينا الهُمَامْ

وتَعْلُو في الرُّتَبِ المَقامْ

ما دُمْتَ رَاعِي السلطنة

خايرُ بك:

إليك زِيٌّ عَسْكَرِيٌّ

فَلْتَدخُلِ القَصْرَ الأَبِيَّ

وكَأَنَّكَ مِن جِيشِنا

مملوكُ مِثْلُكَ مِثلَنا

كُلُّ الوَثائِقِ والخُططْ

والويلُ يَدْرِكُ مَن سَقَطْ

تَجدونَها في حجرَتِه

بِالقَصْدِ تَحتَ وَسادَتِه

وَتِلْكَ مَهَمَّةٌ عَظِيمَةٌ تَقُومُ بها قادِن

قادِن:

إيڤِيت

أَتَهَيَّأُ كالجَارِيَةْ

وأكونُ مِثْلَكَ داهِيةْ

أتتَبَّعُ خُطى الجُيُوشِ وبِالْوَثائِقِ آتيهْ

خايرُ بك:

ويُسَلِّمها آرِن لسليم بك في دمشقَ وأَكُونُ قَد أَنجَزتُ مَهَمَّتِي والوَعدُ لي.

آرِن:

أخبرتُك! نحنُ لا نَنسى الحُلَفاءَ يا خاير بك، ومِن أجلِ البُشرى تِلكَ سَأَطْلُبُ مِن قادِن أن تبعث الرُّوحَ في هذا المَكانِ الكَئيبِ برقْصَةٍ تَتقَنُها وهيَ رَقْصَةُ الهَجَعِ أو التَّجَلِّيبَةِ ـــ رَقْصَةٌ جَنُوبِيَّةٌ عِراقيَّةٌ ذاتُ أُصولٍ سومَرِيَّةٍ تُعرَفُ بِـ "رقصَةِ الطّائِرِ المَذبُوحِ".

خاير بك يَصفِقُ لها:
فَلتُثيري فينا أشجانًا، مادامَتِ الأوتارُ تُعَزِّفُ على أعْمِدَةِ المَرمَرِ تِلْكَ، فَيا مَرحَبًا بالطائِرِ المَذبُوحِ أو رَاقِصاتِ عِشْتار.

آرِن (ساخرًا): أو برقصةِ سالومي الأخيرةِ هههههه

(خاير بك مُمْسِكًا بذقنِهِ وكأنّهُ يَستَشعِرُ عَدَمَ الطّمَأنِينَةِ)
(تَرْقُصُ قادِن وهي تَحملُ الخَنَاجِرَ كما تَتَطلَّبُها الرَّقْصَةُ التي توحِي بِمَصِيرِ خايرِ بك ملباي).

إظلام تدريجي

□

المَنظرُ الرابع

طومانَ باي في الإيوانِ السُّلطانيِّ

الإيوانُ السُّلطاني - قلعةُ الجَبَلِ، عامَ 1517م

جُدرانٌ عاليَةٌ مكسوَّةٌ بِالزُّخارفِ العَرَبيَّةِ المَذهَّبَةِ، تَتدَلّى مِنها قَناديلُ ضَخْمَةٌ تُنثِرُ ضَوءًا أَصْفَرَ خافِتًا.

في صَدْرِ الإيوانِ عَرشٌ مَذهَّبٌ تُحيطُ بهِ وسائدُ مِنَ الدِّيباجِ الأحمَرِ، وخَلفَهُ سِتارٌ مِنَ المَخْمَلِ الأَسْوَدِ يَحمِلُ الطُّغرَاءَ السُّلطانيَّةَ.

على الأرضِ بِساطٌ عَجَميٌّ ثَقيلٌ تَلمَعُ أَطْرَافُهُ بِخُيوطِ الذَّهَبِ.

على الجانِبَيْنِ صُفوفٌ مِنَ المَماليكِ بِالسُّيُوفِ، وحِجابُ القَصرِ عِندَ المَدْخَلِ.

تَتَصاعَدُ رائِحَةُ البُخورِ، وصَوتٌ خافِتٌ لإنشادٍ دينيٍّ يَأتي مِن بَعيدٍ، كَأَنَّما يُحاوِلُ طومانَ باي أَنْ يَردَّ عَن رُوحِهِ غَمَّ الخِيانةِ الّتي تُحِيطُ بِهِ.

يَصطُفُّ حولَ طومانَ باي المَماليكُ الشّراكِسَةُ:

الأميرُ طومان جا (طومانجا الحسني)

الأميرُ قانصوهُ الأجرود

الأميرُ علانُ الطواشي

الأميرُ جانبكُ اليوسفي
الأميرُ قانصوهُ الرماح
الأميرُ قرقماسُ الجِركسي
الأميرُ يشبكُ الدوادار
الأميرُ أزبكُ الدوادار

***

الأمير طومان جا:
ما لي أراكَ عابِسًا حَزينًا يا مولاي؟
أأَسمَحُ بدُخولِ المنشدينَ لَعَتَبَتِكُم الكَريمةِ لِيَشرَحُوا صَدْرَ مولاي بالأناشيدِ المحمَّديَّةِ؟

طومانَ باي:
لاحِقًا بمشيئَةِ الرَّحمنِ، لكنّ تَباريحَ الذِّكرَى تُؤلِمُني لِعَمي السُّلطانِ قَنصوَةَ الغوري الّذي ارتَقَى مُدافِعًا عن تَرابِ هَذا الوطنِ ضِدَّ الغاشِمينَ.

طومانَ جا:
حَضَرْتَك تعلَمُ أنَّ من قَتَلَ عَمَّكَ جَناب السُّلطانِ قَنصوَةَ الغوري هو خِيانَةُ المَمالِيكِ الجِلبانِ.

الأميرُ قانصوةُ الرماح:
وهلْ عدمنا الخِيَانةُ!!!

الخِيَانــةُ فــي الفِيافـي
والبِــراري والقصــورْ
لكنّكُــمْ أسـدٌ تقاتــِلُ
في العَرينِ هو الجسورْ
نحــنُ أفئِــدَةٌ لَدَيكُــم
فــي القِيامــَةِ للقُبــورْ
فلنُعــلِنِ الحَربَ عليهم
نَشْتَهِــي لَحــمَ الصُّقورْ

الأمير قرقماس الجركسي:
صَهيلُ خَيلٍ مِن بَعيدٍ
أتَسمَعُ؟ الوغــدُ يُريــدُ
أرضَ مصرَ مُبتَاغَهُم
وإنَّنــي ذِئــبٌ عنيــدُ

الأمير علان الطواشي:
في القصرِ عاهِرَةٌ تُغنِي
تتعسس قَيْــدَ التَّمَنّـــي
كانَتْ ومن بَينَ الجَواري
أفعـى تُجلجلُ وهي تَعني
كانَتْ سَتَسرِقُ خِطَّتَـكَ
وتهـد عاصمــةً وتَبْنِــي

طومان جا:
لقد أَعَدَدْنا الخُطَّةَ؛ خِطَّتُنا تَعتمِدُ على استدراجِ العُثمانيِّينَ إلى المَيدانِ المَكشوفِ وهوَ الأَرضُ المَفتوحةُ الواقِعَةُ شمالَ شَرقِ قاهِرَةِ المَعِزِّ وتَحديدًا في الـ"ريدانيَّة، ثمَّ ضَرْبُهُم مِنَ الخَلفِ. بالمُناسَبةِ، ما اسمُ تِلكَ العاهِرَةِ؟

الأمير علان الطواشي:
اسمها قادِنُ مِن جَوارِي السُّلطانِ العُثمانيِّ، جاسوسَةٌ ماكِرَةٌ، مُتحفَّظٌ عليها في سِجْنِ القلعةِ.

طومان باي:
إذًا فلنَتَهَيَّأ للمعرَكَةِ الكُبرى!!
ولنَقْطَعْ دابِرَهم قِطْعًا
وبعونِ اللهِ ومن سَمِعِنْ
وبِحَقِّ ياسين سنقهرُ
أسطوْرةَ تُركِي أرعَنْ
مَن يَعبَثُ في أَرضِكَ مِصرَ
مَن يَهِنِ المأوى والحِصنَ
فَلْيُدفن في أرضِكَ دَفنًا

الأمراءُ (بصوتٍ واحِدٍ):
مَن يَهِنِ المَأْوَى والحِصنَ
فَلْيُدْفَنْ في أَرضِكَ دَفنًا
فَلْتَكُنِ المَعْرَكَةُ الكُبرى

المنظَرُ الخامس

خانُ الخَلِيلي

حديثٌ من القلبِ، لا وقتَ للزَّيفِ
(قادِن تذهبُ مُتخفِّيةً بعدما هَرَّبَها آرِن من سِجْنِ القَلْعَةِ إلى شيخِ العطّارينِ، تسيرُ وهي مُرتَبِكَةٌ تُنظُرُ خَلفَها)

***

قادِن : الغَوْثَ يا إدْريسي!!
مَن جُنْد قَصرِ السُّلطانْ
يَسعَوْنَ الآنَ مِن خَلفِي
يعتقدوا أنّي مِن خانْ

شيخُ العطّارينِ (ساخطًا غَضبانًا):
كَفاكِ لِلسّاعَةِ كَذِبًا!
فأنتِ، ما أنتِ الآنْ؟؟
فاتِنَةٌ بُعِثَتْ مِن نارٍ
تَتَعَسَّسُ جُنُدًا والخانْ
لا حُبًّا لا عِشقًا تُدرِكُ
مَن يَأْوِي مِثلَكِ لِجبانْ
ابتعِدي مِن هُنَا

قادِن (مُمْسِكَةٌ بوجهه):
قد كنت خادعة يومًا
لكِنّي أَعشَقُكَ الآنْ
فالويل اذ جِئتُكَ تَوَّا
وأَتَوَقُّ لِحِضنِكَ وَأَمَانْ

شيخُ العطّارينِ (هازِئًا وبِصوتٍ عالٍ):
أَمان يا لالِلي أَمان!
جاسوسَةُ قَصرِ السّلطانْ
والترك وآلُ عثمانْ
تُريدُ عهدًا وأَمانْ!

(قادِن تُمْسِكُ بالخَنجرِ وتَضَعُهُ على شَريانِ يَدِها:)
نَعَمْ أَحَبَبْتُكَ
أنتَ تَجْري في دِمائي
مِثلَ هذا الدَّمِ قاني
وعَصيُّ مِثْلِي مِثْلُكَ
في قَوانِينِ الأماني
هَل تُقاضِينِي لأنّي

أَتَجَسَّسُ أم أَعاني؟
قد تعبتُ الآن منهم، منذ أن اشتروني كجارية تجيد مهارات شتى وأن أحارب معهم من أقصى الشرق إلى أدناه ، ولم أجد الراحة إلا بين يديك انت يا إدريسي .

الإدريسي: مِن أيِّ بابٍ مِن أبوابِ الجَحِيمِ خَرَجتِ عليَّ؟ (يَتَحَسَّسُ وَجهَها)
تِلكَ الشِّفاهُ كَطِفلَةٍ،
إني راعيها
وفي العيونِ قصيدةٌ
إنّي راوِيها
والقلبُ ذاك،
وذي الدُّموعُ،
عطْشَى لحَضْنِي يَفتَديها
لكنَّهُ الوطنُ المُقدَّسُ،
لَنْ أَبيعَ وأشتَرِيها!
لَنْ أَبيعَ وأَشتَرِيها!
(يَحضِنُها بَيْنَ ذِراعَيْهِ ويَبكِيانِ معًا)

قادِن :
هل تَسلِمُني إلى أهلِ الخانِ والعِسْكَرِ؟

الإدريسي:
وهل يُسلِمُ الذَّبيحُ نفسَهُ للسِّكينِ يا حَبيبَتي؟
سوفَ تَظَلُّينَ هُنا في مَخبأٍ في مَخزَنِ العطّارَةِ ولا تُصدِري صَوْتًا حتّى نَرَى ماذا أفعلُ.

(شيخُ العربانِ مَسْروقُ يأتي حامِلًا سُيُوفًا كَثِيرَةً على عَرَبَةٍ)

شيخُ العربانِ (لاهِثًا):
يا أهلَ الخانِ،
فلتصغوا إليّ الآنَ!
انضَمُّوا لِجُنُدِ السّلطانِ،
فَالآنَ مَعْرَكَةٌ كُبرى
سَتُغيرُ مَجْرى الأوطانِ!

شيخُ العطّارينِ :
أأنتَ يا شيخَ العربانْ!!!
تَتَهَيَّأُ لأجْلِ الأوطانْ!!!

وأنتَ من كُنتَ قَديمًا
من تَسرِقُ قوتَ الجوعانْ
معًا سَنَكونُ نيرانًا
ولنَحْرَقْ هَذا الشَّيْطانْ
مَن يُريدُ أن يَتَطَوَّع مَعَ الجُنْدِ فَلْيَنْضَمَّ إلَينا.

الحلوانيُّ والطَّباخُ والبنداري:
مَعَكُم سَنَكُونُ نيرانًا
ولنَحْرِقْ هَذا الشَّيطانْ

(تَلاقِي النُّبُوَّةِ والدَّجَلِ)
الشيخُ دعيبش (يَسِيرُ وسطَ الجُمُوعِ):
أنا في الجُمُوعِ الضّارِعَةْ
احمي النُفوسَ الضَّائِعَةْ!
الغوْثَ عندَك يا إلَهِي!
والحصونُ المانِعَةْ

ابنُ زنبلَ الرِّمال يَعترضُ الجُمُوعَ:
يا أُمَّتي وعشيرَتي
إنَّ الهَزِيمَةَ قادِمَةْ

مَملوكٌ حَتْمًا للزَّوالِ
والتركُ ملكٌ قائِمَةْ
الرَّملُ يُخبِرُ بِالفَنَاءِ
وللوجوه الواجِمَةْ
تِلكَ مشيئتهُ الإلَهُ
قَدْرُ العُهودِ الهائِمَةْ
لا تَخرُجُوا ودَعُوا القَضاءَ
مِصرُ بخيرٍ دائمَةْ
تَحتَ حُكمِ المَمالِيكِ، نَحْنُ بخيرٍ وتَحتَ حُكمِ الأتراكِ نَحنُ بخيرٍ، هكذا يُخبِرُكُمُ الرَّملُ.

الشيخُ دعيبش:

صَدَقَ رسولُ الله عندما قال: سيأتي على الناسِ سنواتُ خداعاتٍ يَصدَّقُ فيها الكاذِبُ، ويَكذِبُ فيها الصّادقُ، ويُؤتَمَنُ فيها الخائنُ، ويَخُونُ فيها الأمينُ، وينطِقُ فيها الرويبضة. قيلَ وما الرويبضة يا رسولَ الله؟ قالَ الرجلُ التافهِ يتكلمُ في أمرِ العامةِ.

الإدريسي :
يا أَيُّها الناسُ لا تَسْتَمِعُوا لِهذا الدّجّالِ، فإنَّما حديثُهُ كَذَرّاتِ الرّملِ، واستَمِعُوا إلى قُلُوبِكُم ونَفِّذُوا ما تُملِيهِ عَلَيْكُم ضَمائِرُكُم تجاهَ مِصرَ، والمَوتُ مَصِيرُ الخَوَنةِ.

الإدريسي (مُحَدِّثًا نَفسَه):
يا تَرى ماذا لو عَلِمُوا أنَّ الشّيخَ يخبأ تُركيَّةً في قَلبِهِ، والقَلبُ ذاكَ الصُّندوقُ، يُحسنُ تَربيةَ الرّجُلِ كبيراً ويُصارِعُ لُبِه، يزرعه عودًا مِن رَيحانٍ أو عَنبَرٍ، ويَقولُ: فَلْتَنمُو تَكْبُرْ، حتّى يُصبِحَ أَكبرَ مِن عَقْلِي، أَكْبرَ مِن جَسَدي، أَكْبَرَ مِن كُلِّ خَيالَاتي في الظَّلْمَةِ وحدي، فيَكونَ ضِياء.

□

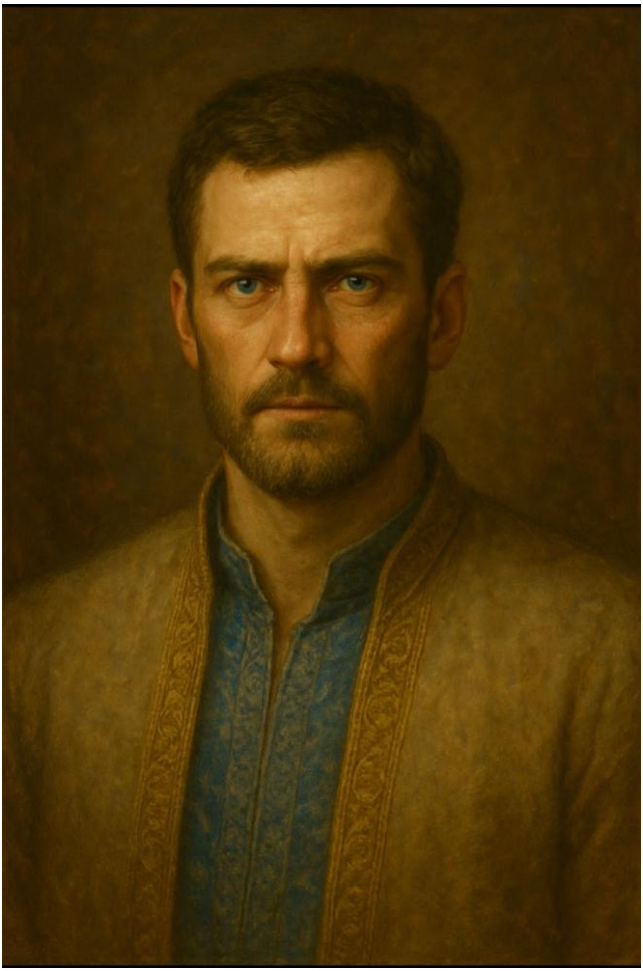

الإدريسي

المَنظَرُ السادس

في ساحةِ المعركةِ

في 22 يناير 1517م (29 ذي الحجة 922هـ)، قرب القاهرة، عند منطقة الريدانية .. مَعْرَكَةُ الريدانيَّةِ ونِضالُ القائِدِ طومانَ باي وإلى جانِبِهِ المَماليكُ الشّراكِسَةُ وأبناءُ الشَّعبِ مِن المُتَطَوِّعينَ وبَعضُ العَرَبانِ.

(الهاتف يعودُ من جديدٍ)

طومان باي:

يا جنودي أقبلوا
بالرُّوحِ! للوطنِ الخلودْ
بقلوبِكم لتردِّدوا
جيشٌ مقاتلُهُ أُسودْ
و على الإله توكَّلوا
إنّا لفي نصرٍ نعودْ

الهاتف :

حاذِرْ صديقَك ألفَ مرَّهْ،
لا تكتفِ منهُ عُهُودْ.

فَذو المذمّةِ خائرٌ،
في قلبِهِ حِقْدٌ وَلُودْ.

الأمير طومان جا بصوت عال:
خاير بك ملباي انضم لكتائب جيش العثمانيين يا مولاي السلطان

الهاتف :
وسيلقى كلُّ خائنٍ
ذنبَنا نحنُ الجنودْ
ماتَ جنديٌّ يُصلّي
بالمَدافعِ والباروْدْ
كيفَ ينجو الآنَ جيشٌ
بعدَ رصدٍ وقيودْ

الأمير قرقماس:
إن المدافع العثمانية يا مولاي السلطان سلاح فتاك نحن لا نملك مثله؛ لقد حصدت الصفوف وأربكت الخيالة .

الأمير قانصوه الأجرود:

لقد قتل يا مولاي السلطان جميع الأمراء الجراكسة من جيش العثمانيين وفرق الإنكشارية ،كما قام خاير بك، الذي كان مكلفًا بالدفاع مع المماليك، بخيانتك إذ انسحب بقواته في لحظة حرجة، مما سبب انهيارًا في الجبهة.

الإدريسي :

لقد انسحب السلطان إلى باب زويلة

(موسيقى غامضة.. ناي حزين يمتزج بصوت ريح خافتة) (إيقاع موسيقي يرتفع ببطء)

الإدريسي (بصوت جهوري الآن):

رغمَ المكائدِ في الظُّهورْ،
ستظلُّ كالأسدِ الغيورْ،
وتظلُّ أفضلَ تُرجُمانٍ
قد حمى(مِصرَ» دهورْ،
ويظل السيف سيفاً
مَن يُجاهدُ في الثغورْ،
حتّى وإنْ كسبوا حياةً،
يشتري كُلَّ العصورْ.

الحلواني :
من منكم يخبأ السلطان؟
وتخلّى الجميعُ عنكْ،
حتى حُرّاسَ المقابرْ،
والخيانةُ داءُ جُبنٍ،
مُستقىً من سُمِّ خائرْ.
ويقولوا الآن حتماً
سيُجازَونَ الذخائرْ؟
أحمقٌ فينا، ويَرعى،
وسَيُكتَبْ في الدفاترْ.
خائن بك ملباي او خاير بك ملباي

الطباخ :
أنا لا أدري ماذا أفعل
أنا اعرف ان الواحد يختبأ من السلطان ، أما أن أخبأ سلطان فهذه وصفة لا أعرف لها مقادير
مسروق شيخُ العربانِ :
سأخذه على فرسي ونختبأ في مكان آمن.
□

المنظر السابع

في خانِ الخَلِيلي / محاولةٌ لِتَقَبُّلِ الهَزِيمةِ

(جموع الناس يلتفون حول الإدريسي يسألون عما حدث في المعركة).

الإدريسي حزيناً:

فرَّ طومانَ باي إلى صعيدِ مِصرَ لِيَختَبِئَ هناك، ثم قُبِضَ عليه بعدَ دُخولِ سليمِ بك إلى القاهرةَ بعد أن وَشَى به شيخُ العربانِ مسروق .

كلب يعيش بلا ذَنَبْ
لا يستقيم مع النُخَبْ
الغدر طبعُ فؤادهِ
ويلٌ له مما كَسَبْ
الويل لك يا شيخ العربان
الويل لك !!

الهاتف:

نفسٌ تُطاولُها السماءْ
تجري كما ريحِ النقاءْ

فهي البطولةُ والفداءْ
ونفسٌ لها سِمةُ البغاءْ
تشري الكرامةَ بالفناءْ
وغدًا سيأتيها الجزاءْ

الحلواني:
سبحان ربي مَن مَلَكْ
عدلٌ ويرحمُ مَن هَلَكْ

***

□

المنظر الثامن

على بابِ زُويلَة

«وفي يوم الأحد حادي وعشرين من ربيع الأول شنقوا السلطان طومان باي على باب زويلة، فوقف بين يدي الحبل وقال: دعوني أقرأ الفاتحة، فقرأها، ثم قال: الحمد لله الذي لا يدوم إلا ملكه. ثم شنقوه، فارتجت القاهرة بالبكاء، ولم يُرَ يوم أشد حزنًا من ذلك اليوم، وبقي معلقًا ثلاثة أيام، ثم دُفن بالقرافة." ابن إياس

(يسمع نعيق الغربان بقوة، بينما جسد السلطان طومان باي معلق في الهواء، الرياح تصرخ بين جنبات الأرض والوجوم يخيم على الوجوه)

الإدريسي:

أرثيك أم أرثي جموعَ الناسِ
كُنَّا بظلك طَوْدَ عزٍّ، راسِي
ما هابَنا زَهْوُ الغُرورِ وعُدَّتُهُ،
جِئنا جُيوشَ الروحِ كالألماسِ
يا خيرَ من رفعَ السيوفَ بسالةً،
من أجلِ مصرَ ـــ الآنَ كيفَ يُقاسي؟
يا خيرَ من حكمَ البلادَ بعزَّةٍ،

كانت بقلبي، آهِ، فوقَ الراسي
للهِ مُلكٌ في السماءِ وأرضِهِ،
الله نعبد وهو رب الناس

الهاتف :
عُهُودٌ تَتَسَاوَى فِي الحِسَابْ،
الثَّلَاثُ فِي ثَلَاثٍ فِي كِتَابْ،
كُلُّ عَهْدٍ فِيهِ خَيْرٌ، فِيهِ شَرٌّ،
يَتَسَاوَى الكُلُّ فِيهَا
فِي مَقَادِيرِ الغِيَابْ.

الحلواني:
راحَ طُومانُ وولّى،
جاءَ تُرْتَانُ يُوَلِّي،
والبِضاعةُ بالبِضاعةِ،
فهو طوفانٌ وحُلِيٌّ،
يا حَلُولي يا حَلُولي!

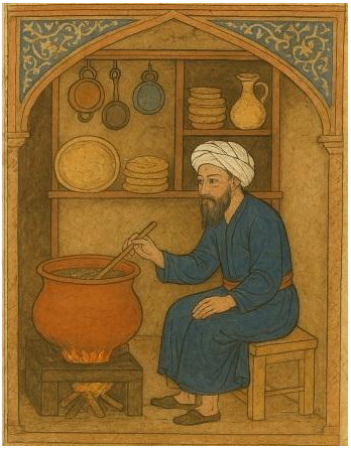

الطباخ

الطباخ:

يا لَـــذُلِّ الذِّكْرَيَاتْ،
وَالعَصَا قَيْدُ الثَّبَاتْ،
عَلَى ظَهْرِي الآن حُلِيّ
يَا حَلُولِي.. يَا حَلُولِي!!

الإدريسي :

سيظلّونَ الغُزاةْ،
مِنْ مَمَالِيكٍ وَزَالَتْ،
أوْ أَشاوِيشِ الطُّغاةْ،
شَاربوا كَأْسَ السِّياسَهْ،
أوْ بِتَرْوِيضِ العُصاهْ،
نَحْنُ شَعْبٌ حُرٌّ إنّا،
سَنَكُونُ لِمُنْتَهَاهْ،
وَسَيَأْتِي الحُرُّ يَوْمًا،
وَيَثُورُ لِأَخَاهْ،
وَسَتَأْتِي مِصْرُ حُرَّهْ،
تَتَبَسَّمُ لِلْحَيَاهْ.

ابنُ زنبل:

الرَّمْلُ قَالَ وَقَدْ وَعَدْ،
مَنْ جَاءَ بِالتُّرْكِ سَنَدْ،
يَنْجُو وَيَهْنَا فِي رَغَدْ،
الرَّمْلُ قَالَ وَقَدْ وَعَدْ.

(خاير بك ينظر مترجلا عن فرسه وعلى ملامحه حزن مصطنع بعدما نصح السلطان سليم بك أن يقتل طومان باي لأن الناس لو رأوه حيا سيقومون بثورة ضد سليم بك)

الشيخ دعيبش:

دُنيا ومُغمِضَةُ الجفونْ،
تَرتَجي كُحلَ العيونْ،
وتبتغي للناسِ مَهْرًا
زيفًا يُتابِعُهُ المَنونْ.
يا الله، يا الله...

***

□

المنظر التاسع

خاير بك ملباي واليًّا على مصرَ حتى وفاته سنةَ ١٥٢٢ وجَزاءُ الخِيَانَةِ.

في قصرِ خايرِ بك ملباي في الدربِ الأَحمَر على مائدةِ الخِيَانَةِ.. مشهد: نبوءة الرمال

ابنُ زنبلَ الرِّمال:

إني أراكَ في الولاية!
ستعيشُ أبداً للدهور،
تشرُفُ بكم حتى النهاية،
فخرَ المماليكِ الجَسور.

الهاتف (صوت غيبي):

كذبتَ يا كلباً عقور،
والرملُ يُقرئُكَ السلام،
والوَيلُ ويلُكَ في القبور!
(يرتبك ابن زنبل مما يسمعه)

خايرُ بك ملباي (متفاخراً):
أحسنتَ يا ابنَ زنبل!
فلقد تعبنا واجتهدنا،
والولايةُ ذي مهور،
تدفعه دوماً من كفاحك،
أسدٌ تُطارده صقور.

الهاتف :
وستَفْنَى،
والخيانةُ قَيْدُ طَبْعِكُمُ الكَفُورْ،
وستَبْقَى الآن مِصْرُ،
مَوْطِنًا تَحْوِي النُّسُورْ،
وتَعِيشُ مِصْرُ دَوْمًا
فِي الزَّمَانِ وَفِي العُصُورْ،
ويَمُوتُ الخَوْفُ فِيهَا،
وَالعَزَائِمُ لَنْ تَخُورْ،
جُنْدُهَا جُنْدٌ أَبِيٌّ،
جَيْشُهَا أَسَدٌ غَيُورْ.

(يرتبك خاير بك محاولا أن يتغلب على ذلك أمام ابن زنبل)

خاير بك : والآن فلتخرج يا ابن زنبل.

الهاتف:

فَلْتَمُتْ معكَ الخيانةُ
وَالرَّزَائِلُ وَالمَهَانَةْ
وَسَتَلْتَقِي يَوْمًا بِذَنبِكَ
لَدَى الإِلَهِ جَلَّ شَأْنُه

(يسقط خاير بك على أرض المسرح، ويقف عند رأسه سليم بك الأول بغرور)..

سليم بك: ألقوا هذا الجسد واعلموا أهل المحروسة بقدومنا السعيد و بميلاد عهد جديد من حكمنا نحن العثمانيين ولتؤمروا بقتل كل من:

- ابنِ زنبلَ الرِّمال لإثارته الدجل بين الناس
- قادِنِ الجاسوسَةِ التُّركيَّةِ الّتي فَرَّتْ مِنَ الجِندية

ابنُ زنبلَ الرِّمال

المنظر العاشر

في خان الخليلي

(صوت المنادي السلطاني يرتفع بين ضجيج السوق)

يظهر المنادي السلطاني، رجل متوسط العمر، على حمار أبيض قصير الذيل، يلبس قفطانًا من الجوخ الأخضر وعليه منطقة من الجلد فيها نسخة من المرسوم ملفوفة بخيط حريري أحمر.

أمامه عسكريان يحملان عصيًا من الخيزران يفتحان الطريق له بين الناس. وراءه صبي صغير يحمل جرسًا نحاسيًا، يرنّه قبل كل إعلان.

يقرأ المنادي بصوت رخيم جهوري:

"من خالف الأمر يُعاقَب، ومن أطاع نال رضا السلطان ورحمته.

بلغوا من سمع ألا عذر لأحد بعد اليوم .. يعاقب بالتعذيب والموت كل من ابن زنبل الرمال وجارية القصر السلطاني الهاربة الفارة قادن، ومن آوى قادن أو ابن زنبل الرمال فسيتعرض للعقوبة العاجلة.

الإدريسي متحدثاً للجمهور:

بيـنَ العُيونِ أو الجُفـُونِ
هيَ ذي هُناكَ ولن تَكـونْ
في الأسـرِ يَومًـا واحـدًا
ما دُمْتُ في الدُّنيا أكـونْ
هــيَ منِيَّتــي وقَضيَّتــي
سَأُثيـرَ عنْدَكُـم الجُنُـونْ
ثــأري لديكــم دائــمٌ
ثأري لَدَيْكُم لَنْ يَهُـون
أنا شيــخُ المُناضِلِيــنَ..

الإدريسي.

***

سِتار

السيرة الذاتية

الشاعرة/ رشا الحسيني
جمهورية مصر العربية

الهوية الأدبية

- شاعرة بالفصحى وكاتبة مسرح شعري
- عضو اتحاد كتاب مصر
- حاصلة على ليسانس اللغات الأوروبية والترجمة – قسم اللغة الألمانية
- حاصلة على دبلوم الترجمة الصحفية والأدبية – الجامعة الأمريكية بالقاهرة
- حاصلة على دبلوم تدريس اللغة الألمانية – المعهد النمساوي بالقاهرة

الجوائز والتكريمات

- جائزة اتحاد كتاب مصر – جائزة الكاتب محمد سلماوي لأفضل نص مسرحي – فرع المسرح عن المسرحية الشعرية "محاكمة كيوبيد".
- جائزة المركز الثاني في مهرجان أيام القاهرة الدولي للمونودراما عن الثلاثية المونودرامية (الماتريوشكا)

الإصدارات الأدبية

الدواوين الشعرية

- خفقات قلب (شعر فصحى) – 2005
- حالك يا مصر (شعر عامية) – 2011
- جدار الشوق والأمنيات (شعر فصحى) – 2017
- توق وطوق (شعر فصحى)

الأعمال السردية

- ألف ليلة وليلة للأطفال
- الأميرة والشيطان (رواية) – 2011
- الحب نبض البنفسج (مجموعة قصصية)

الأعمال المسرحية الشعرية (2018–2023)

- بيكاسو وأحاديث الظلال
- الوارثون

الفصل الأول (دميانة وفواز)

الفصل الثاني (الادريسي)

- محاكمة كيوبيد

- الشرنقة – غشاء العميان
- فاكهة أشجار الجحيم

الأعمال الإذاعية

- غناوي المسحراتي – إذاعة القاهرة الكبرى (2018)
- فوازير ست الستات – 2020
- فوازير ست الستات وسيد الرجالة – 2022

صدر حديثًا

- مسحراتي أرض العرب
- السهرات الإذاعية:
- زمن قابل للعودة
- صائد الخوف
- مسلسل تليفزيوني كوميدي لايت:
- يوميات أسرة خايفة من الكورونا
- الثلاثية المونودرامية:

الماتريوشكا وأصداء المعتزلة
أصداء الشيطان
أصداء السيد

***

كتاب طيوف

رشا الحسيني تمارس ألوان الإبداع كافة حيث تكتب القصيدة الشعرية، والقصة، ثم تكتب درة التاج في الإبداع بصفة عامة كما أعتبره أنا وهو المسرح الشعري، لأنه ببساطة شديدة يجمع المتناقضات، الشعر بذاتيته وتحليقه، والمسرح بموضوعيته وتعدد أصواته، والجوهر في المسرح هو الصراع بمعنى أن هناك شخصيات متقابلة، هناك شخصيات متضادة، بينما في الشعر هناك صوت الشاعر وحده، وكلما كان هذا الصوت صافيا لا يدخله نبرة صوت آخر؛ كان الشاعر أكثر إجادة وإتقانا وإبداعا، صحيح أن بعض القصائد الشعرية يدخلها ما نسميه تعدد الأصوات وهذا قديم وليس جديداً كما يظن البعض، لكنه كان ينطلق من صوت الشاعر نفسه، على نحو ما يرد في أشعار عمر بن أبي ربيعة مثلا فسوف نرى حديثاً لعمر على لسان الوسطى والصغرى والكبرى إلى آخره، أو لدى القصيدة الشهيرة التي تنسب إلى وضاح اليمن : (قال:...، قالت)، حيث إن دخول أكثر من صوت شعري يأتي عادة عبر نبرة الشاعر ذاته، أما في المسرح لا بد أن يخلق شخصية، ثم يترك هذه الشخصية لتتصرف هي وليس هو (الشاعر)، وفقا لبنيتها هي (الشخصية)، وثقافها وتربيتها هي، وإلا سقط في هوة أنه متحدث رسمي باسم الجميع وهذا لا يليق، فالمسرح يجمع الإتقان الدرامي عبر الصراع وتعدد الشخصيات، والتحليق الشعري عبر صفاء صوت الشاعر وانحيازه البين لذاته الشاعرة، ورؤيته الخاصة الفريدة.